هيثم دبور
إشي خيال
قصص

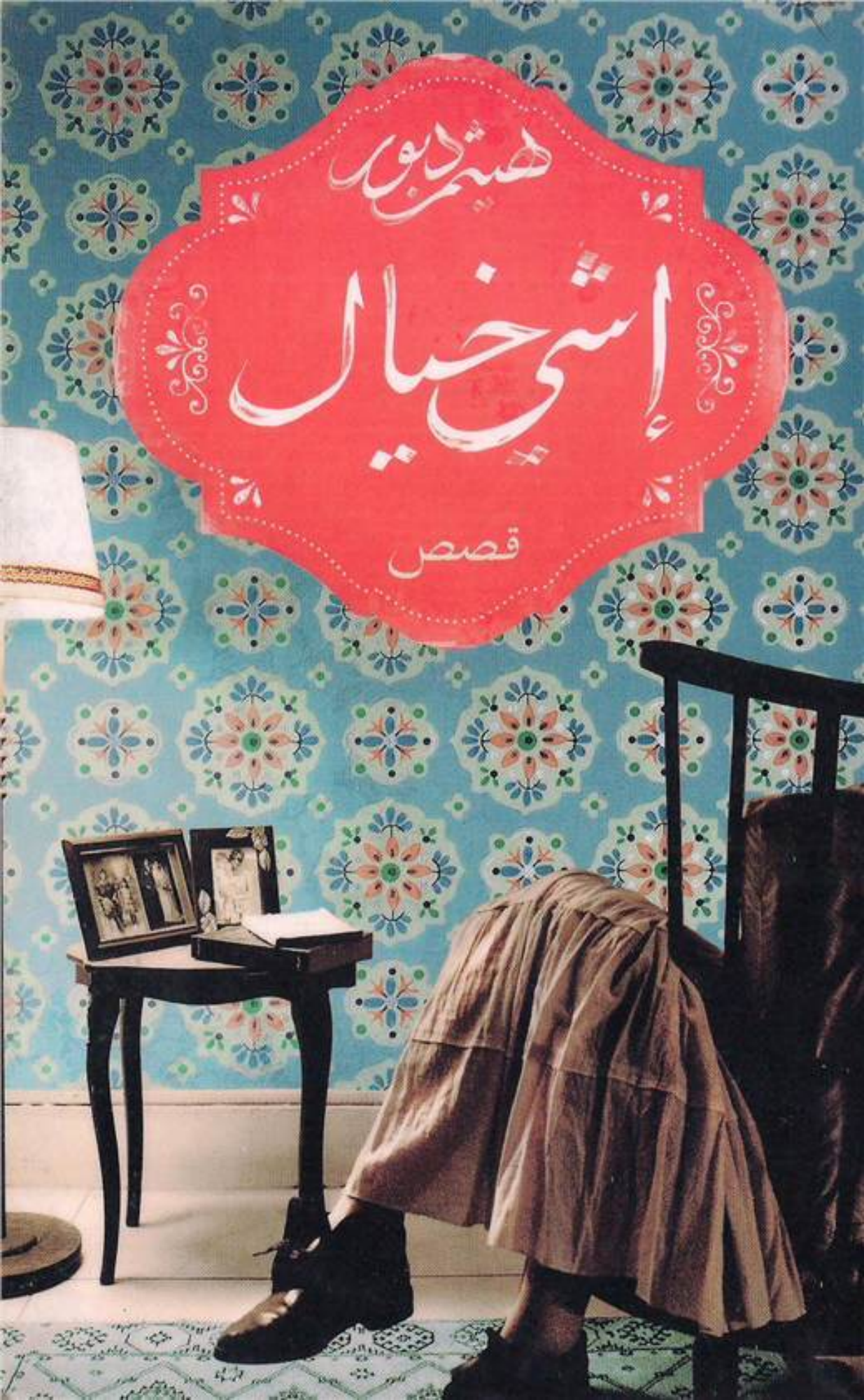

إشي خيال (قصص)

هيثم دبور

■ الطبعة الأولى.......... ديسمبر 2014

الغلاف: ريم عطية

التصحيح اللغوي: أحمد عبدالمجيد

رقم الإيداع: 2014/22137

الترقيم الدولي: 5 - 55 - 5153 - 977 - 978

جميع حقوق الطبع محفوظة

الرواق للنشر والتوزيع

3 شارع إدريس – أول شارع الوحدة – إمبابة – الجيزة

هاتف وفاكس: 33100951 (202)

محمول: 01147379183

rewaq2011@gmail.com

facebook.com/Rewaq.Publishing

هيثم دبور

إشي خيال

قصص

الرواق للنشر والتوزيع

إهداء

عيلتي وسارة
وزين
كريم وعطية

فوتوكوبي

(١)

لم تمنع الرياح الباردة الخفيفة التي استأسدت بفعل شهر أكتوبر محمود من الجلوس على بوابة محله، ينظر إلى المارة ذهابا وإيابا في انتظار أن يناله نصيب من صخب النهار، أن يدخل إليه أحد طلبة كلية الهندسة أو معهد «عبده باشا» ليطلبوا منه تصوير مستند أو على أقصى تقدير طباعته، بعد أن تضاءلت طلباتهم على تحويل الرسائل العلمية أو الملخصات أو الأبحاث اللاتي خطوها بأيديهم إلى نسخ إلكترونية، وهو الدور الذي دأب محمود على فعله منذ زمن بعيد.

يركض أحد الطلبة صاعدا الدرجة العلوية للمحل، يربت على كتف محمود للتحية، وليمنعه من القيام أيضا، يخبره بأنه يعرف طريقه جيدا، يختار أحد الأجهزة ويضع فيها قضيبا صغيرا يحفظه في ميدالبته ليخزن عليه ملفاته، يطبع ورقتين، ثم يعود إلى حيث ترك محمود، يخبره بأنه طبع ورقتين، ولا يهتم محمود كثيرا بالعد أو التأكد ويتناول منه جنيها في ميكانيكية، يقلبه

بين يديه، فيلحظ أن عاشقين قد خطا حرفيهما وقلبا صغيرا بلون وردي، مر زمن منذ رأى جنيها ورقيا، يسأل عن جنيه آخر بدلا من الورقي المهترئ، يخبره الطالب أنه لا يملك غيره، يعاود محمود النظر إلى الجنيه مرة أخرى ويتحسس بإصبعه الحرفين المكتوبين، يخرج قدميه مما ينتعله ويمدهما قليلا ليطالا شمس الظهيرة التي رسمت خطا خفيفا أمامه دون أن تكمل دورها لتكسو بقية المنطقة المظللة بفعل البنايات الأخرى.

لم تختلف جلسته حتى حدود السادسة، سوى أنه رفع يديه مرتين أو ثلاث مرات لتحية سكان العمارة الذين عادوا لتوهم من أعمالهم، يمر عليه حسني سريعا ويذكره بمصروفات الصيانة الدورية للعمارة التي تأخرت ٣ أشهر ويزيد بأنه في عجلة من أمره لأنه يحتاج إلى دفع مصاريف طلاء الواجهة خلال أيام، يهز محمود رأسه محاولا ألا يعطي وعدا لا يستطيع الوفاء به.

كانت المرة الأولى التي تحرك فيها محمود على مدار اليوم حين سمع صوت السيدة أشجان وهي تنادي على عبد العزيز ابن حارس العمارة المقابلة كما تفعل بشكل شبه يومي ليساعدها في نزول الدرج خارج بوابة العمارة، وكعادة عبد العزيز دائما في الاختفاء وقتما يحتاج إليه أحد سكان الشارع، انتفض محمود متوجها إلى السيدة أشجان، يبتسم في وجهها قليلا، ويساعدها في الحركة لنزول السلم، يعرف مقصدها ويفتح نفس الحوار الذي اعتاد أن يفتحه يوميا معها.

- «أتقصدين الصيدلية؟»

- «آه، حقنة السكر كما تعرف».

يوصلها إلى بوابة الصيدلية المقابلة، ثم يساعدها حين تعود بتؤدة في صعود الدرج، وهو يصنع نسخة ضوئية من نفس حوار كل يوم.

- «بالشفاء إن شاء الله».

فتهمهم هي بما لا يسمعه لكنه مزيج من عبارات الشكر والدعاء أو كلاهما.

يعود محمود إلى محله وقبل أن يجلس مجددا يجد رجلا يرتدي جلبابا ينتظره في الداخل، يناوله عقدا مكتوبا على الكمبيوتر، ويخبره أنه يريد أن يعدل عدة بنود ثم يقوم بطباعته، ينتظر محمود عدة لحظات بعد أن يتناول الورقتين، يسأله الرجل: «ماذا تنتظر يا عم الحاج؟»، يجيب محمود مرتبكا «ألن تناولني ذاكرة أو فلاشة عليها الملف الأصلي؟»، يجيب الرجل بأنه لا يمتلك الملف الأصلي فتتهلل أسارير محمود.

يجلس على المكتب وينظر إلى الشاشة، يطقطق أصابعه، يحفزه الرجل ويخبره أنه يريد أن ينهي الأمر سريعا.

في خفة ورشاقة تتراقص أصابع محمود على لوحة المفاتيح، تلك السرعة التي ميزته دائما منذ بدأت علاقته بالكتابة على الكمبيوتر، تصنع تكتكات الأزرار سينفونية صغيرة محببة للاعب البيانو العجوز، ينهي كتابة البند الأخير في العقد.

(البند الحادي والعشرون)

يعتبر هذا العقد لاغيا من تلقاء نفسه في حالة وفاة أحد الطرفين - لا قدر الله -

يتأمل الورقة للحظات، اعتاد أن يعرف حياة من حوله من خلال تلك الأوراق القليلة التي يكتبها نيابة عنهم، فؤاد الذي يجلس جواره والذي يبدو من اسمه الكامل أنه قبطي جاء من قنا بحكم بطاقته ينتوي إدارة جراج أحد العقارات الجديدة في شارع العباسية، والعقد بين ممثل اتحاد

الملاك وبينه، يحاول أن يقطع الصمت بينه وبين الرجل.

- «قنا.. أجدع ناس».

- «الله يكرمك.. لكنني تركتها منذ سنوات، لا أعتقد أنني سأذكرها لو عدت مثلا، عشر سنوات في القاهرة كافية لتجعلك قاهريا».

- «وماذا كنت تفعل طوال السنوات العشرة؟»

- «سائس سيارات أمام أحد التجمعات التجارية في مدينة نصر».

يبدي محمود بعضا من الحسرة على الرجل الثلاثيني الذي يصغره بربع قرن، ويحاول أن يهون عليه: «فليرزقك الله بما هو أحسن منها.. عمل حقيقي يساعد الناس وتفخر به».

يضحك فؤاد قليلا، يخرج سيجارة ويناول محمود فيخبره أنه لا يدخن، ويقول: «أنت طيب يا عم الحاج.. لربعد هناك أحد في القاهرة يركن سيارته بنفسه.. الزحام غيّر المدينة.. لقد كنت أدفع إيجارا للشارع الذي أقف فيه، وأعرف رجالا من بلدتي جاءوا خصيصا للعمل في المهنة.. الجراج الذي أستأجره من ادخار تلك المهنة».

- «وماذا كنت تفعل قبلها؟»

- «فواخري.. نحن عائلة ممن عملوا بالفخار، لكن لربعد هناك من يحتاج إلى قلة للشرب أو زير ليضعه سبيلا للمارة.. خلاص يا عم الحاج.. جبرت».

يضغط محمود بقوة على زر «الإدخال» مؤكدا على أمر الطباعة ومعلنا نهاية الحوار الوحيد الذي أجراه اليوم، يسأله فؤاد عن السعر فيطلب محمود أربعة جنيهات، يناوله فؤاد خمسة جنيهات، يبحث محمود في جيبه ويخرج الجنيه الورقي ذا القلب الوردي، ينظر مرة أخرى إلى الحرفين اللذين يقعان

على طرفي القلب، قبل أن يضع الجنيه في جيبه، ويأخذ الخمسة جنيهات، ويطلب من فؤاد انتظاره، يدلف إلى الصيدلية، ويطلب «فكة» لجنيهاته الخمسة، ويعود حاملا جنيها معدنيا يناوله لفؤاد.

يقترب أسامة صاحب المحل المجاور ويساعد محمود في جذب البوابة المعدنية العلوية لغلق المحل، ويفر سريعا حتى يتابع توافد الشباب على محله كما اعتادوا في ذلك الوقت من الليل، تنبعث من داخل المحل إضاءة فسفورية بنفسجية تلفت نظر محمود، يرفع رأسه تجاه إضاءة بيضاء مصدرها مصباحان نيون يضيئان اللافتة الخشبية التي كتب عليها بخط الثلث اليدوي «محمود فوتو كوبي»، وفي طرف اللوحة إمضاء «السهيتي» ورقم تليفون أرضي، يترجل محمود إلى منزله القريب حيث يقضي ليلته وحيدا كما اعتاد.

(٢)

في منتصف اليوم حمل محمود مقشته الخشبية وبدأ في جمع الأتربة من جنبات المكان، يصدم الطاولة التي استلقى عليها جهاز الكمبيوتر، فيقيق النظام من وضع «السبات»، تضيء الشاشة لتحمل خلفية تحمل صورة ثلوج بيضاء اللون في أحد المناطق القطبية، يجمع كومات التراب، يلمح فيها عقب سيجارة، ينحني ويتناوله ويفركه في يده متحيرا في مصدره، ثم يلقيه على الكومة وهو ينفض يديه، ينتظر خلو الشارع أمامه من المارة حتى يطوح بكومة التراب بمقشته دون أن يصنع فرق المستوى بين أرضية المحل والشارع سحابة ترابية تضايق المارة، لا يخلو الشارع لدقائق، حيوية غريبة فيمن يذهبون ويجيئون مرتدين ـ أغلبهم ـ اللون الأحمر، وعلى مقربة تركض فتاة تجاه فتاة أخرى شاهدتها للتو، مصدرة صوتا يوحي بالدهشة أو المفاجأة، تحتضنها وهي تضحك وتمسك بوردة حمراء رخيصة الثمن، في مشهد يلفت الشارع الضيق لها.

يمر عبد العزيز في عجلة من أمره لقضاء أمر كالمعتاد، يستوقفه محمود ويسأله عما يحدث، يجيبه عبد العزيز بصوت مرتفع لافت «إنه عيد الحب المصري يا عم محمود.. يمكن أن تسميه فلانتين تقفيل مصري، وما تراه أمامك هن بنات (سناجل) يهادين بعضهن بورود» ثم يكمل وهو يضحك «الحرمان صعب».

لا يبادله محمود نفس روح الدعابة، ويبدو أنه لم يفهمها من الأساس، ينطلق عبد العزيز ويترك محمود في حيرته مع كومة التراب، يقترب منه فتى ويسأله إن كانت هناك خدمة طباعة أوراق، يهز محمود رأسه، ويدفس الكومة الترابية بجوار الكرسي الذي اعتاد أن يجلس عليه، ويسند المقشة على الحائط، ويدلف خلف الفتى، يخرج الفتى كتابا قام بثني طرف أحد صفحاته، يشير لمحمود على جزء كبير حدده بقلم أزرق، قائلا «أريد كتابة الفقرات من هنا وحتى نهاية الصفحة الثانية، وعمل عنوان قبل تلك الفقرات بعنوان (بحث عن الديناصورات) وتحتها (إعداد: هشام مجدي)».

يتناول محمود الكتاب ويضع «دبّاسة» فوق ضلفتي الكتاب ليبقي الصفحة مفتوحة، يحكي الفتي دون أن يسأله محمود: «المعلمة في الصف عاقبتني لأنني حين قدمت الورقة البحثية المرة السابقة قمت بجلب المعلومات (كوبي وبيست) من ويكيديا فكشفت الأمر وطلبت أن أعيده».

يسأل محمود: «(كوبي وبيست)؟! أتملك كمبيوترا؟!»

يجيب هشام: «طبعا، وطابعة أيضا.. لكنني أشعر بالكسل من القيام بإعادة كتابة تلك المادة مرة أخرى، الأمر ممل جدا».

يصمت محمود وينظر إلى أنامله التي اتخذت موضعها على أزرار لوحة المفاتيح، ويقطع شروده الفتى «كم من الوقت سيستغرقه الأمر؟»

- «ربع الساعة على الأكثر».

ينهض الفتى ويهم بالانصراف معللا: «سأعرج على محل الورود حتى تنتهي من الكتابة».

يبدأ محمود في النظر إلى السطور التي تحكي عن الديناصورات، الأسماء والتركيبات العلمية تستوقفه للتأكد من كتابتها بشكل صحيح، يبدأ في ترديد الجمل بصوت مرتفع قليلا حتى يضمن صحة المعلومات التي يكتبها.

«يُظهر براز الديناصورات المتحجر أن بعض آكلات الأعشاب اقتاتت على مغطاة البذور، بينما استمرت الأغلبية منها تقتات على عاريات البذور بشكل رئيسي، وقد تبيّن من خلال التحاليل الإحصائية أن الديناصورات لم تتفرع لأنواع وفصائل جديدة مختلفة خلال أواخر العصر الطباشيري، كما كان يُعتقد في السابق، فقال داعمو هذه النظرية إن الديناصورات فشلت في التأقلم مع المتغيرات البيئية حولها، ولم تستطع أن تزدهر لتظهر منها أشكال جديدة، وكان هذا الجمود في تاريخ نشوئها هو ما حكم عليها بالفناء»

لا يعلم محمود عدد الدقائق التي قضاها شاردا قبل أن يعيده إلى أرض الواقع صوت هشام وقد عاد حاملا باقة ورود متوسطة الحجم، وعلى وجهه ابتسامة، ويبدو متعجلا من أمره، يسأل محمود:

- «هل انتهيت؟»

- «تقريبا.. مجرد تنسيق بسيط لأحجام الخطوط وسأطبع الملف فورا».

- «فلتسرع إذن.. أريد أن ألحق موعدي قبل موعد الدرس الخاص حتى لا يعاقبني المدرس هو الآخر على التأخير».

- «فلانتين؟»

- «اسمه عيد الحب المصري.. الفلانتين يكون في شهر فبراير».

ثم يبتسم الفتى في وجه محمود ويبادره بسؤال مداعب وهو يخرج إحدى الوردات من الباقة: «أتريد وردة؟!»

يحاول محمود أن يبدو جادا ويهز رأسه بالشكر، فيتمادى هشام في دعابته «أنت سنجل؟!»، يرد محمود في عدم فهم «ما الذي تقصده؟!»، يغمز الفتى قائلا: «يعني وحيد.. مفيش حاجة كده ولا كده؟»، يصمت محمود وهو يبتسم ابتسامة خفيفة لا تنعكس على روحه التي اخترقها السؤال ويجيب باقتضاب «لأ».

- «لأ يعني سنجل ولا لأ يعني مش سنجل؟!»

يعرض محمود الملف على الشاشة في صورته النهائية ويسأل الفتى: «هل أطبع الآن أم لديك ملحوظات؟»، يشير هشام بإبهامه بما يعني الموافقة، ويقول في مرح: «على العموم هذه الوردة لك، إذ كنت وحيدا فهي مني لك، وإن لم تكن فأنت تعلم لمن ستهديها.. كم تريد حسابا؟»

- «١٠ جنيهات».

يخرجها هشام وهو يتناول الورق من الطابعة، يسأله محمود بهدوء: «قل لي يا بني.. لماذا انقرضت الديناصورات؟!»

- «لا أعرف.. لم أهتم أساسا بقراءة الفقرات، أنت من قرأتها ويمكنك أن تشرح لي».

- «قرأت ولم أفهم.. وظننت أنك تملك إجابة».

- «لا أعرف».

- «سؤال آخر إذا سمحت.. إذا كانت الديناصورات انقرضت قبل أن

نتواجد نحن بني البشر على الأرض كما تقول العبارات التي قرأتها..
فكيف عرفنا بوجود الديناصورات أساسا؟»

يصمت الفتى في عدم فهم، ويرفع كتفيه للتعبير عن عدم معرفته ويأخذ الأوراق وينطلق ملقيا التحية، يبحث محمود عن مكان للوردة، يخرج الجنيه من جيبه، ويترع دبوسا مكتبيا من أمامه ويثبتهما معا في الحائط الخشبي أمامه وهو ينظر للوردة مليا.

(٣)

يعصر محمود ليمونة كاملة على صحن التونة الذي أعده لنفسه، يزيل ورقة خارجية لبصلة خضراء، يتوجه من المطبخ إلى غرفة المعيشة حيث يلقي فؤاد المهندس دعابة عبر أحد أفلامه عن «مستر إكس» الذي لا يموت بسهولة، يسحب محمود ورقة جريدة من أسفل التلفزيون ويفرشها ويضع فوقها صحن التونة والبصلة.

يحرك ناظريه بين فؤاد المهندس وأسطر الجريدة القديمة، أوقعه حظه في صفحتين من الملحق العلمي الأسبوعي، يتذكر جيدا كيف كانت الصفحات العلمية وصفحات البورصة هي الأسوأ بالنسبة له في إعادة كتابتها حين كان يعمل في إحدى الصحف القومية لما يزيد عن عقدين من الزمان، كان يقوم بإعادة كتابة المادة المخطوطة يدويا على ورق «الدشت» إلى أجهزة الكمبيوتر مرة أخرى، وكانت الصحيفة تطلق مجازا على تلك العملية «جمع البيانات»، لريكن «محمود الجميع» مميزا في تلك المهنة عن غيره، فلا أحد يمكنه أن يتميز

في عملية الجمع، جميع العاملين متقاربون، متشابهون، وقلما كان أحد خلاف رئيس القسم يعرف أسماءهم، حين تصادف في مرات قليلة أن بعث مدير التحرير أو رئيس التحرير لطلب أحدهم ليشرح له شيئا مختلفا أو ترتيبا غير معتاد لمقاله المخطوط كان ينادي «عز الدين» رئيس القسم قائلا: «فلترسل لي أحد (الجميعة)»، يدخل محمود إلى المكتب الذي دخله مسبقا عدة مرات في أمور مشابهة فيسأله مدير التحرير «ما اسمك؟» ، يجيب محمود فيعاود مدير التحرير السؤال وكأنه يتحقق «الجميّع ؟!»، يهز محمود رأسه وتكون تلك الإشارة كافية لاقترابه ليفهم طبيعة المهمة.

قبل عدة أعوام، بدأت الجريدة في إحلال نظام إلكتروني بدلا من الورقي، بدأ الامر بنطاق محدود من أجهزة المكتب لم يجعل محمود يلقي بالا للأمر، وبين ليلة وضحاها أصبح الكمبيوتر المحمول في أيدي الجميع، الصحفيون يحملون حقائبا على أكتافهم بها أجهزتهم، حتى مدراء التحرير يقضون ساعات خلف الشاشة التي يطوونها في نهاية اليوم.

تدريجيا، أصبح لزاما على الجريدة إعادة إحلال القسم المكون من ٤٠ عاملا، كان عز الدين الأفضل حالا حيث عمل كسكرتارية في مكتب أحد مدراء التحرير، في الوقت الذي تم توزيع الموظفين فيه عشوائيا طبقا لاحتياجات الجريدة في الأرشيف، أو وظائف إدارية، عدا زميل طلب الانتقال إلى البوفيه، ومحمود وثلاثة آخرون طلبوا تسوية معاشهم بشكل مبكر، حصل بعدها على مكافأة نهاية الخدمة التي اشترى بها المحل، ودفع مقدم حاسوبين وطابعة وماكينة تصوير، ليبدأ رحلته من محمود «الجميع» إلى محمود «فوتوكوبي».

لم يعشق محمود صفحات البورصة لأنه لم يكن ضالعا في الأرقام، والأمر بالنسبة له كان يحتاج إلى مجهود كبير في التدقيق، أما الصفحات العلمية فكان يسأل عن جدواها وعن المخابيل الذين ينتظرون تلك الموضوعات الجافة،

إلا أنه ضبط نفسه كأحد المخابيل المشدودين إلى الصفحة التي ازدانت ببقعتين من زيت التونة، حين وجد مقالا عن انقراض الحوت الأبيض، وشيء ما عن جهود إنقاذه.

يقرأ محمود المقال مرتين محاولا البحث عن سبب انقراض الحوت الأبيض، لكن المقال كان يتحدث عن جهود منظمات بحثية في إنقاذ السلالة وهو ما لم يشبعه، يقطع محمود هذا المقال من الجريدة بما يحويه من بقعة زيت ويضعه في جيبه العلوي.

(٤)

يمر «سامح» فني الأجهزة والطابعات كما اعتاد بين الحين والحين للسؤال والعمل، يسأل محمود إن كانت الأجهزة تعمل جيدا، فيجيبه بالإيجاب، فيبادره ببقية أسئلته المعهودة

- «هل تحتاج إلى حبر من أجل ماكينات التصوير؟»
- «لا، لدي ما يكفي»
- «آخر مرة غيرت لك الحبر منذ عدة أشهر، هل أصبحت تتعامل مع أحد غيري يا عم محمود؟»
- «أبدا يا سيدي، لكن الحال ليس على ما يرام»
- «طيب، هل أجلب لك ورقا للتصوير احتياطيا؟ شهر ديسمبر اقترب وتصوير المراجعات يكثر حينها».
- «ليس الآن يا سامح».

- «إذا كان الحال ليس على ما يرام يا عم محمود، لماذا لا تبيع ماكينات التصوير؟»
- «لمن؟»
- «رجل طيب صاحب كشك أمام مكتب السجل المدني بالميدان، يصور البطاقات الشخصية والأوراق الرسمية بربع جنيه للورقة»
- «ربع جنيه!! وهل يدفع له الناس؟»
- «طبعا، الطوابير لا تنقطع عنده، لا يوجد مواطن لا يحتاج إلى تصوير أوراق في مكاتب السجل المدني».

يفكر محمود قليلا، ثم يحاول أن يطرد الفكرة من ذهنه وأن يقنع نفسه بأنه في أحسن حال، يقول بحماسة «أعطني رزمة ورق ٧٠ جم»، يخبره «سامح» بأنه سيمر عليه خلال يومين على الأكثر برزمة الورق تلك، ويمد يده إلى محمود طالبا ثمنها، يخرج محمود عدة جنيهات من جيبه ويناوله إياها.

يخرج ليجلس على كرسيه البلاستيكي، يرفع الشال الصوفي على رقبته اتقاء للفحة الهواء، يشغله عقب سيجارة على أرضية محله، ينهض إليه، يحمله ثم يعود، يتساءل في نفسه إن كان «سامح» يدخن أثناء حوارهما، لم يستطع أن يتذكر، يلوم نفسه أنه لم يلحظه رغم أنه يمقت رائحة الدخان، يلوم نفسه أكثر أنه لا يتذكر، تتداعى الأفكار، يصل إلى سؤال جدلي عما كان سيحدث لو جرب التدخين صغيرا ثم عرف والده، تساءل إن كان الموقف معكوسا، وتزوج هو ثم اكتشف أن ابنه يدخن، تخيل سيناريو الأب الحازم ثم عاد وتخيل سيناريو الأب الذي سيعالج الأمر بحكمة وصداقة، استعاد شريط حياته، مات والده فاهتم بوالدته حتى تجاوز الثلاثين، قبل أن ترحل وتتركه، فكر في الارتباط مرتين إلا أن الموضوع لم يسر كما خطط

له، لم يستطع فعليا تذكر السبب لكنه كان على الأرجح سببا ماديا له علاقة بخلافات الشقة والمؤخر، انشغل في عمله وظن بذلك أنه ينشغل في نفسه، حتى مر القطار سريعا، أسرع مما يتخيل، ووقف في المحطة التي جعلته يتساءل على كرسي أبيض بلاستيكي عن سبب وحدته، توقف قليلا عن التفكير وحاول أن يسترجع بذهنه كيفية وصوله إلى تلك الفكرة، حاول أن يسير بأفكاره بشكل عكسي وكأنه يرجع عائدا في طريق التداعي الذي سار خلاله، يفشل في تذكر السبب لكنه يعرف من السيجارة الموجودة بيده أن الأمر بدأ بها، يلقيها وينظر في ساعته وكأنه ينتظر أمرا.

وكأن صوت السيدة أشجان هو ما كان ينتظره، تنادي عبد العزيز الغائب دائما، ينتفض من مكانه، يتجه إلى داخل المحل وينتزع الوردة، تسقط وريقاتها وتتحول إلى فتات بعد أن جفت طوال تلك الفترة، يحاول محمود أن يعيدها إلى الحائط فتأبى الوردة أن تطاوع الدبوس، يضعها على لوحة المفاتيح ويعيد الجنيه إلى الحائط، ويركض مسرعا في اتجاه السيدة أشجان، يلقي عليها التحية فتبادره بنفس الأمر.

- «أتقصدين الصيدلية؟»

- «آه، حقنة السكر كما تعرف».

يسود الصمت بعد الحوار المعتاد بينهما، تكسره أشجان بقولها: «الجو بارد الليلة»، يجيب محمود «آه»، ثم يسود الصمت مرة أخرى حتى تصل إلى الصيدلية.

في طريق عودتها يدعو لها محمود بالشفاء وتتمتم هي بما لا يسمعه، ثم تضيف: «داليا قالت لي إنه بإمكانها المرور علي في موعد الحقنة حتى لا أضطر النزول في هذا البرد مجددا»، يعجز محمود عن الكلام، فيدعو لها بالشفاء مرة أخرى.

يتجه محمود إلى محل أسامة المجاور لمحله، يتفاجأ أسامة من تلك الزيارة غير المعتادة، ويفاجأ محمود بالمحل الذي لم يدخله في حياته مطلقا، خلف الإضاءة الفسفورية التي يراها، هناك سحابات الدخان المنطلقة من سجائر الفتيان والشباب الذين جلسوا على أجهزة الكمبيوتر يتنافسون في إحدى الألعاب التي لا يفهمها، بينما يجلس في الركن شابان يمسكان ذراعي «بلاي ستشن» ويختاران تشكيلا لفرق كرة قدم في شاشة التلفزيون أمامهما، لم يعتد محمود المحل هكذا، اعتاده محلا منافسا لكتابة الرسائل العلمية قبل أن يغير أسامة نشاطه منذ ثلاث سنوات، يبادر أسامة بالسؤال:

- «قل لي إنك جئت موافقا على بيع محلك أخيرا حتى أتوسع.. الناس في علبة سردين هنا».

- «لا، أنت تعلم جيدا أنني لا أفكر في البيع».

- «إذن اؤمرني».

- «أحتاج إلى الإنترنت، أنت تعرف أن أجهزتي بلا خطوط إنترنت».

- «غريبة.. وفيم تحتاج الإنترنت؟»

- «سأبحث عن أمر، ولن أطيل».

- «لكن كل الأجهزة مشغولة كما ترى».

يهم محمود بالانصراف، فيستوقفه أسامة: «انتظر.. إنها المرة الأولى التي تدخل المحل.. لن تطيل.. أليس كذلك؟»

- «بلى».

يتجه محمود إلى أحد الشباب الذي يبدو أنه يعرفه ويميل على أذنه وهو يشير إلى محمود، يبدو أنه يستأذنه، ينهض الشاب وهو يسند سيجارته

المشتعلة على مطفأة التبغ أمامه، فيقول له أسامة بصوت مرتفع محييا: «سأعوضها لك نصف ساعة كاملة»، يجلس محمود فيربت الشاب على كتفه قائلا: «مفيش لعب بوازيك يا عمو»، يتضاحك الجميع عدا محمود، يجلس أسامة بجانبه، ينهي اللعبة، يفتح متصفح إنترنت ويسأل محمود: «ماذا تريد من الإنترنت؟»

يجيب محمود: «هل يمكنني البحث عن أي معلومة كما يقولون؟»، يجيب أسامة بالإيجاب، يشعر محمود بالتوتر ويتردد في الحديث، يمد يده إلى السيجارة المشتعلة ويسحب نفسا دون أن يدري أنه فعل ذلك، ينبهه أسامة: «هل تدخن يا محمود؟»

يضع محمود السيجارة من يده مندهشا، يسعل بأثر رجعي، يبالغ في السعال حتى ينهض أسامة ويخبط بكف يده على ظهره، يلفت المشهد نظر الشباب الحاضرين، يستجمع محمود قواه ويقول: «أريد أن أعرف لماذا انقرضت الديناصورات؟»

(٥)

يجد محمود الدخول إلى محله أمرا صعبا بسبب السقالة التي يستخدمها عمال المخارة الذين يعملون على طلاء الواجهة، يجلس محمود في الداخل أغلب اليوم ولا يتمتع بشمس الظهيرة الشتوية كما اعتاد، يمر عليه حسني مذكرا إياه بأقساط الخدمة، خاصة وأن العمال بدأوا في العمل، يطالبه محمود بالصبر قليلا، يتململ حسني من رده، ويرحل من المحل خافضا رأسه حتى لا يصطدم بالسقالة.

يلمح محمود أعقاب السجائر أمام محله، يخرج إلى العمال ليطالبهم بالكف عن التدخين، وإلقاء أعقاب السجائر، يقف مواجها لبوابة المحل ويرفع رأسه لأعلى مناديا على رئيس العمال بلقب: «يا ريس»، حين يلمح أن الطلاء الذي يستخدمونه للواجهة قد سقط بعضه على لافتته الخشبية فطمست أغلب أحرف اسمه «محمود»، بينما بقيت عبارة «فوتوكوبي» كما هي، ينفعل محمود مرددا سؤالا استنكاريا عما حدث، فيجيب رئيس

العيال ببرود أن أحد صبيانه أسقط الطلاء دون قصد، ويجيبه بطريقة العمال في الإحراج وإنهاء مثل تلك المشكلات: «احسب كم تتكلف الخسائر وسأخصمها من يومية ابن الكلب»، وهو ما أدئ إلى انسحاب «محمود» من الأمر.

يدون محمود رقم السهيتي قبل أن يتوجه إلى منزله، يجلس بجوار الهاتف، ويحاول الاتصال بالرقم الأرضي، يجيبه النداء الآلي أن الرقم غير صحيح وأنه يحتاج إلى التأكد وإعادة المحاولة، يخرج من جيب البيجامة قصاصة الملحق العلمي، يعاود كتابة الرقم في الهامش العلوي، ويضع قبله رقم ٢ ويعاود الاتصال، يجرب نفس الأمر بعد إضافة ٣ في بداية الرقم، ويجيبه النداء الآلي بضرورة التأكد مرة أخرئ، يذكر أن الأرقام تغيرت أو زادت رقما لكنه لا يستطيع تحديد احتمال صحيح، يضع القصاصة أسفل التليفون، ويخلد إلى النوم.

في الصباح لم يتوجه محمود إلى محله كما اعتاد، توجه إلى سوق الوايلي القديم، يمر بين باعة الخضروات والجبنة والأسماك، يسكن السهيتي في تلك المنطقة لكن لا يدري موقعه تحديدا، لقد كان آخر لقاء بينهما منذ زمن حين طلب اللافتة الأمامية للمحل، يسأل الباعة فيجيبونه بأنهم لا يعرفون، حتئ يتطوع صاحب محل «الكرشة» وهو يمسك الممبار في يده:

- «هل تريد مأمون السهيتي بتاع الانتخابات؟»
- «السهيتي.. الخطاط».
- «أيوه.. هو الذي يكتب لوحات الانتخابات.. أول عطفة، البيت الثالث».

يقف محمود أسفل المنزل الذي تغير، لكن لم تتغير الساحة الأمامية التي يقف فيها «السهيتي» ليرسم لوحاته، ماتزال علب الطلاء في مدخل العمارة،

«طبقا لذاكرة محمود البصرية بالمكان فإن السهيتي يسكن في الطابق الأخير، يتلفت محمود حوله حتئ يجد طفلا فيسأله أن يساعده في النداء على السهيتي، يتوقع محمود من الطفل أن يستفيد بحيويته راكضا على السلم، طارقا باب السهيتي ليخبره بأن أحدا في انتظاره في الأسفل، إلا أن الطفل أطلق العنان لحنجرته، واضعا كفه جوار فمه ليصنع تنغيما لصوته: «سهيييييتي».

يخرج من النافذة شاب يرتدي فانلة داخلية لا تتناسب مع برودة نوفمبر، يشير الطفل إلى محمود قائلا «الحاج ده عايزك».

بعد عدة دقائق يقف الشاب في مواجهة محمود، حالة من الحيرة تنتاب كلاهما في البدء، يبادر الشاب: «أوامرك يا عم الحاج».

- «أنا.. أنا فقط أسأل عن السهيتي».
- «اؤمرني، أنا ابنه أنس».
- «لو لم يكن موجودا، يمكنني المرور عليه في وقت لاحق».
- «مش هينفع، الحاج مأمون تعيش انت».
- «مات!!»
- «لأ، راح مشوار للجنة واحنا في انتظاره».

يضحك «أنس» بقوة، ولا يستوعب محمود الدعابة، وتظهر ملامح الصدمة على وجهه، تلك الصدمة التي تجبر «أنس» على التعامل مع الأمر بجدية، يضع يده فوق كتف محمود، يسحبه إلى الحائط المواجه للعمارة والذي مازال يحتوي على آثار أحرف تجريبية للمتوفى، يسحب من محل البقالة المقابل كرسيا ويُجلس عليه محمود، بينما يكتفي هو بحافظة بلاستيكية لزجاجات المياه الغازية، يطلب من صبي القهوة «ليمونا»، يهدئ من روع محمود.

- «اهدأ يا عم الحاج.. واضح إن الوالد كان عزيزا عليك».

يصمت محمود، فيسأل «أنس»: «هل كنتما أصدقاء مقربين؟ اوعى يكون الوالد مديون لك بأموال، أنا يا مولاي كما خلقتني، أو يمكنك أن تنتظره إلى أن يعود من الجنة.. مسافة السكة».

يضحك مرة أخرى، ويكرر سؤاله وهو يناوله الليمون الذي وصل توا: «هل كنتما أصدقاء مقربين؟!»

- «أبدا، لقد قابلته مرة واحدة فقط، كان قد صنع لي لوحة وضعتها في واجهة محلي».

- «ولماذا لم تقل ذلك من البداية؟! ها أنا ذا، إذا كنت تريد صناعة لوحة جديدة».

تتهلل أسارير محمود، وينظر إلى «أنس» بفرحة: «يعني .. هل ممكن أن أحضر لك اللوحة لتعيد كتابتها كما كانت؟»

يجيب «أنس» بتعجب :«أكتبها؟! من قال إنني أكتب، سوف أصنع لك لوحة، أعطني المقاسات وسأصممها على الكمبيوتر وأطبعها بالمقاس والخامات التي تريدها»

- «بالكمبيوتر.. يعني ليست بخط اليد؟»

- «لا تقلق أنا خطي حلو على الكمبيوتر».

يضحك مرة ثالثة على دعابته، ثم يعود ليمسك بتلابيب الحديث: «خط اليد يا حاج كان زمان، الآن كل شئ بالكمبيوتر، الوالد قعد سنتين قبل أن يموت لا يمسك فرشاة، لم يعد هناك من يقبل على خطوط السهيتي».

- «والانتخابات؟! قيل لي إنكم ماتزالون تعملون في لافتات الانتخابات».

- «طبعا، لكن لوحات إلكترونية، ألم تلحظ التغير في الشارع، مازلت أفعل كل ما كان والدي يفعله، لوحات، تهاني، تعازي، مجاملات، انتخابات، لكن على الكمبيوتر، و(بولوبوه) نطبعها فورا في ساعة زمن، أضف إلى ذلك أن البلاستيك المستخدم في لوحات الطباعة أفضل من القماش أو الخشب اللذين كان الوالد يكتب عليهما».

- «لكن علب الطلاء ماتزال في المدخل».

- «نشفت، العيال تستخدمها كقوائم افتراضية في مباريات الكرة التي يقيمونها في العطفة».

(٦)

على كرسيه داخل المحل بعد أن أنهى العمال عملهم من أسبوع دون أن يزيلوا السقالة يجلس محمود، يشعر بضيق المكان، يرنو في أعمدة السقالة المعدنية قضبان زنزانة، يمسك الجريدة، يفتح صفحة الوفيات، ويبدأ في قراءة الأسماء، يحاول أن يرى عدد المتوفين الذين يحملون اسم «محمود»، يعد الأسماء ويظلل عليها بقلم أزرق يحمله، لم تكن من وظائفه حين كان «جميع» أن يعيد كتابة الوفيات، يصنعها قسم التنفيذ الفني مباشرة، لذلك لم يكن يتخيل أن تحفل صفحة الوفيات بهذا العدد من المتوفين الذين يحملون اسم «محمود»، يتمتم بصوت مسموع «هي البلد كلها أصبحت محمودا؟»..

يمر بجواره «أسامة» ويلقي السلام، فيرد محمود السلام باقتضاب، لم يعتد محمود أن يجد أسامة في مثل هذه الساعة المبكرة، يقترب أسامة أكثر ويحاول أن يذيب الثلج بينهما قائلا دون مقدمات: «ما هو انت صحيح بتهزر يا محمود، ديناصورات إيه يا جدع!»

ينظر له محمود من فوق نظارته، فيكمل «أسامة»: «وبعدين يا محمود كنت أبلغني بطلبك قبل الدخول، لكن تسألني عن الديناصورات وسط العيال ولاد الهرمة الذين لم يتم تربيتهم، لم أستطع منعهم من الضحك».

- «لكنك ضحكت معهم يا أسامة».
- «الحقيقة الموضوع كان مضحكا، لم أستطع منعهم أو منع نفسي.. ثم دعنا نفترض أن هذا الموقف لم يحدث، لو أنني فتحت لك إحدى الصفحات على جوجل للقراءة عن تاريخ الديناصورات، فإن الأمر كان سيتجاوز الخمس دقائق بكثير».
- «كان يمكن أن تطبع لي الملف لأقرأه في المنزل».
- «أنت تعلم جيدا أنني بعت طابعتي من أجل شراء أذرع إضافية لجهاز البلاي ستيشن».
- «لكنك ضحكت».

يضحك أسامة مرة أخرى وكأنه تذكر الموقف، فيبتسم محمود بالتبعية، يقول ضاحكا: «وكله كوم والولد الذي قال لك ديناصورات إيه يا جدو، انت لو كنت اتولدت سنتين بدري كنت لحقتها»، ثم يضحك مرة أخرى، يبتسم محمود وهو يحاول تمثيل الضيق، فيقترب منه أسامة متداركا: «طب أنا آسف يا سيدي، حقك علي، وسأقبل رأسك أيضا».

يحاول أسامة المرور من قضبان السقالة الحديدية فيفشل، يقول: «ولكي تعرف أنني جئت لتطييب خاطرك، سأمد لك وصلة إنترنت إلى أحد أجهزتك، بشرط أن تتحمل تكلفة الوصلة، وتدفع ثلاثين جنيها شهريا، وأول شهر هدية مني لك، يمكنك أن تقرأ عن الديناصورات كيفما يحلو لك».

تتهلل أسارير محمود بقوة منذ فترة طويلة، ينهض من كرسيه فتصطدم رأسه بأحد أعمدة السقالة ويهتف «بجد؟!»

يهز أسامة رأسه ويقول: «لكنني أعتقد أنك بمجرد أن تعتاد الإنترنت، ستكون الديناصورات آخر اهتماماتك يا راجل يا وحداني يا خلبوص»، ويغمز له غمزة موحية.

لم يكتمل شعور محمود بالسعادة سوى بعدها بيومين، حين أزال العمال سقالاتهم المنسية، وجاء «سامح» لتركيب وصلة الإنترنت من محل أسامة، يجلس محمود على جهازه مثل الأطفال، يدير متصفح «جوجل كروم» قبل أن ينتهي «سامح» من وصلاته، وكأنه طفل تعلق بتكنولوجيا حديثة يراها للمرة الأولى، تظهر صفحة بيضاء على شاشة متصفح «جوجل كروم» مرسوم عليها ديناصور تجريدي صغير الحجم وأسفله عبارة «يتعذر الاتصال بالانترنت»، تفاجئ الرسمة محمود، فيمد يده إلى الشاشة ويتحسسها، قبل أن يطلب منه «سامح» الانتظار حتى ينتهي لأنه يعيقه عن الانتهاء في الوقت المناسب.

مع بدء المساء، يلحظ «داليا» وهي تحمل مصلا ما، وتدخل إلى داخل العمارة، يشعر بالحنين إلى رؤية السيدة أشجان، ينادي على «داليا»: «يا دكتورة.. يا دكتورة».

تقف داليا فيهرول هو تجاهها، يعرفها بنفسه، يسألها: «لو افترضنا إنني مصاب بالسكر.. هل يؤثر ذلك ـ يعني لامؤاخذة لا مؤاخذة ـ على أن يرزقني ذلك بأطفال؟»

تندهش داليا من السؤال، فيلمح ذلك في عينيها، يحاول أن يتدارك الموقف: «الحقيقة أنني لا أسأل لسبب شخصي، أحد أقاربي سألني ووعدته أن أسألك، الحقيقة أيضا أنه ليس أحد أقاربي، إنها إحدى قريباتي».

تبقى داليا على حالتها المندهشة، بينما يقف شاب أفريقي نحيل طويل القامة يصفق بيده أمام باب محل «محمود» كإشارة لطلب أحد من المكان، تشير له داليا أن أحدا بانتظاره، ينظر له ثم ينظر لها ثم يعاود النظر له وكأنه ينتظر الإجابة، يزيد الشاب من تصفيقه، يفكر محمود في الزبون النادر الذي لن يعوض، يستأذنها ويتوجه إليه بينما تكمل هي طريقها إلى داخل البناية.

يظهر فارق الطول بوضوح حين يقترب محمود من الشاب، تبدو ملامحه الأفريقية واضحة لا تخطئها عين، يتكلم العربية الفصحى بصعوبة، وبلكنة عصية على الفهم من أول مرة، يسأل: «السلام عليكم.. هل هناك إنترنت؟»

- «تقريبا».

- «ممكن أؤجر ساعة من فضلك؟»

- «اتفضل يا ابني»

- «أشكرك.. بكم الساعة؟»

- «ادفع ما تريده.. الإنترنت مايزال جديدا لدرجة أنني لم أستخدمه».

يجلس الشاب الأفريقي، ويراقبه محمود باهتمام بالغ، يتلفت الأفريقي حوله ثم يسأله: «هل هناك (هيدفون)؟»، يبدي محمود عدم فهم، فيشير الرجل بيديه ويقول: «سماعات».

يتجه محمود إلى الجهاز الثاني حيث ينتزع سماعات مكتبية، فيشير له الرجل أنها ليست ما يريد، ويقول: «هيدفون.. سماعات رأس وميكروفون».

- «لا يا بني».

- «هل هناك كاميرا؟!»

- «وما الذي سأفعله بالكاميرا في مكتبي».

يشعر الشاب بخيبة أمل ويفتح أحد برامج الدردشة، ويبدأ في الكتابة ببطء نوعا ما، يلاحظه محمود في حالة من عدم الفهم، تمتد الساعة إلى ٣ ساعات كاملة حتى يعلن محمود أنه يريد أن يغلق المحل، يناوله الرجل ١٥ جنيها ويرحل، ويسأله: «متى تبدأ العمل صباحا؟!»

(٧)

«من الممكن أن يكون جاسوسا».

يقولها عبد العزيز وهو يضع صينية الفول أمام محمود، الذي يحاول أن يطرد الفكرة من ذهنه، لكن عبد العزيز يصر عليها: «جاسوس يا عم محمود.. ألا تشاهد التلفاز؟»

- «جاسوس! هي أفريقيا فيها جواسيس؟»
- «طبعا يا عم محمود، لقد سمعت بالتلفاز منذ عدة أيام أنهم ألقوا القبض على شبكة فيلبينية.. حتى الفلبينيين تتجسس، مصر مطمع يا عم محمود، المؤامرات التي تحاك ضدها أكبر مما تتخيل».

يردد محمود في اندهاش وكأنه يحاول أن يستوعب الكلام: «جاسوس!»، فيكمل عبد العزيز: «طبعا، ألم يطلب كاميرا وسماعات، وكان يتمتم بلغة غير مفهومة لك وهو يجلس أمام الكمبيوتر.. جاسوس».

- «وما العمل يا بني؟»

- «عندما يأتي مرة أخرى.. استدرجه في الحديث أو أغلق المحل واطلب الشرطة أو الجيش أو نادني وسأفعل معه (السليمة)».

يتحرك عبد العزيز ويجلس محمود على الكمبيوتر الموصل بالإنترنت، يكتب عبر المتصفح «الديناصورات»، يجد الشاشة وقد امتلأت بالنتائج، والصور، تشده الصور التي يبدأ في مشاهدتها، يدخل حسني المحل متضجرا فلا يلحظه محمود المشغول بالنظر إلى صور الديناصورات، يصرخ حسني: «ليس من المعقول ما تفعله يا سيد محمود».

ينتفض محمود من مكانه يبسمل عدة مرات، وينظر إلى حسني الذي يعرف مقصده جيدا، فهو متأخر في دفع مساهمته في اتحاد الملاك، يحكي لحسني عن الوضع غير المستقر، فيتبرم الأخير ويخبره أنه سمع تلك الأسطوانة مرارا ولا طاقة له بها، يجد محمود أنه لا مناص من أن يقطع وعدا نهائيا، ينظر إلى التاريخ ويقول: «قبل نهاية الشهر القادم سأكون قد سددت كل المصاريف اللازمة، من المفترض أنه مع نهاية الفصل الدراسي الأول في يناير يقبل الطلبة على تصوير الأوراق والمراجعات والانتهاء من الأبحاث، وحينها سأدفع».

ينفجر حسني فيه ويخبره أنه لم يشاهد زبونا دخل محله إلا صدفة أو للسؤال عن عنوان مقهى قريب، وأنه يشك في وعده، ويهدده بأنه إن لم يلتزم سيتخذ ضده إجراء متعلقا بخدمات المياه والكهرباء، يخرج حسني بعد أن يعكر صفو محمود، يشعره ما يفعل بنوع من الخرف، يتساءل إن كان عقله قد جن فعلا، يغلق شاشة الكمبيوتر، فيلمح في نص انعكاسها شعره الأبيض وتجاعيده، ترتعش كف يده اليمنى للحظات، فيمسكها باليسرى لتستقر، ويقرر أن يجلس خارجا ليتنفس بعض الهواء.

في الموعد المعتاد يجد صيدليا شابا يتجه إلى مدخل العمارة، يستوقفه، يسأله عن وجهته فيخبره أنه في طريقه إلى السيدة أشجان لأن داليا في إجازتها الأسبوعية، يصر محمود أن يصعد معه إذ إنه لا يصح أن يزور سيدة تسكن بمفردها، يتعجب الصيدلي قائلا: «الحاجة أشجان تفوق الخمسين»، يخبره محمود شيئا عن الأصول، يدخلان سويا البناية التي لم يشاهدها من الداخل تقريبا، يداخله شعور طفولي لفتى في بيت الألعاب، يقف مشدوها متأملا، المرآة القديمة في المدخل، أحدهم لصق عليها ورقة تعلن عن اجتماع لاتحاد الملاك خلال الأسبوع المقبل في منزل السيدة أشجان لاختيار رئيسا جديدا لاتحاد الملاك، وإمضاء حسني في نهاية الورقة، يتوقف قليلا أمام الورقة التي كتبها أحدهم على الكمبيوتر بعجالة دون اهتمام بالأخطاء، تتداعى أفكاره فيسأل عن كيفية طباعتهم لورقة مماثلة دون أن تمر عليه.

يجذبه الصيدلي من ملابسه ليدفعه للإسراع، يطرق باب السيدة أشجان في الطابق الثاني ويقف في مواجهة الباب بينما يقف الصيدلي عدة خطوات إلى الخلف، تفتح السيدة أشجان، يبادرها محمود بالشرح أن الصيدلي الجديد لم يكن يعرف عنوانها جيدا فاضطر لسؤاله وهو ما اضطره للصعود معه لإرشاده، يندهش الممرض ويحاول أن يتكلم فلا يعطيه محمود الفرصة، ويختتم حديثه سائلا: «كيف حال صحتك الآن يا ست أشجان؟»

تدعوه أشجان لتناول مشروب بالداخل، يتململ الصيدلي من الانتظار بينما السيدة أشجان في المطبخ تعد الشاي لمحمود، تخرج بصينية الشاي وتضعها أمام محمود، تسأله عن السكر، يجيبها أنه لن يشربه بسكر تعاطفا معها، تضحك فيضحك ويخرج الصيدلي عن شعوره ويطالبها بالإسراع لأن لديه عمل.

بعد إنهاء عمله ينصرف الصيدلي وهو يصفع الباب خلفه بقوة، يمسك محمود بمقبضي الكرسي في محاولة تمثلية للانصراف وهو يقول: «كنت أريد

أن أطمئن فقط على صحتك يا ست أشجان»، تشكره، فيسألها للمرة الأولى: «لماذا لا يسأل ابنك كريم على أحوالك منذ فترة طويلة؟»

ترتبك أشجان وتسأله: «وكيف عرفت أن لي ابنا اسمه كريم؟»، يبتسم ويقول: «أنت نسيتِ أنك جئت إلي لأكتب لك صيغة التوكيل العام على الكمبيوتر منذ عدة سنوات، كريم أحمد بسيوني»، تندهش من ذاكرته، الموقف العابر الذي لم تذكره سوى حين ذكرها هو به، كيف له أن يذكره بتلك الدقة.. «كريم أحمد بسيوني».. يحفظ اسمه ثلاثيا وكأنه كتب الأوراق بالأمس.

يكمل محمود: «حين كنت صغيرا في البلد، كان هناك بوسطجي يسمى عبادة، يكتب الخطابات إلى آبائي وأجدادي وكل كبار السن في القرية الذين لا يستطيعون القراءة والكتابة، يعرف من يحب، ويصيغ تلك المشاعر لمن لا يقدر على صياغتها، يعرف أيضا من يحزن أو يفكر في ذلك، من يفكر في الأرض أكثر من أطفاله، ومن ينتظر عودة غائب من السعودية، يعرف كل الأمور، يعرف أيضا حين يتأخر أحدهم في الرد أو العتاب أو مساعدة ذويه بأموال، يعرف فقط لأنه يمتلك ذلك الخط الجميل والقدرة على الكتابة المنسقة، القدرة على فك طلاسم الأحرف..»

- «وما الذي حدث لعبادة؟»

- «صحونا ذات يوم ووجدناه مقتولا.. ملقى بجثته في الترعة، وغرق معه كل ما كان يعرفه».

تشعر بنوع من الشجن وتبدو وكأنها تحاول ألا تصرح بها قد يقرأه محمود في عينيها: «إذن أخاف أن أخبرك عن كريم فتلقى مصير عبادة؟»

يصمت محمود، يلمح في عينيها دمعة رجراجة، تحاول أن تفر من مقلتيها، يقول لها دون مقدمات «هل تقبلين الزواج مني يا أشجان؟»

(٨)

يدخل الشاب الأفريقي ويلقي السلام ويتجه إلى جهاز الكمبيوتر، ينشغل فيما يبدو أنها عملية بحث عن معلومات، ولا يقوم بالدردشة كالمرة السابقة، يسأله محمود:

- «والأستاذ منين؟»

يتلفت الشاب الأفريقي ويضع يده على صدره وكأنه يسأل إن كان المقصود، فيكرر محمود السؤال: «طبعا.. لا يوجد في المحل غيرك.. سيادتك منين؟»

- «النيجر».

- «نيجريا.. أجدع ناس.. أحسن لاعبين كرة قدم».

- «النيجر وليس نيجريا».

- «مش فاهم».

- «النيجر.. ليس لدينا أحسن لاعبين كرة قدم».
- «مش فاهم برضه.. واسم الكريم إيه؟»
- «عثمان.. عثمان سليم».

يلتفت عثمان ويبدأ في البحث عبر الإنترنت، يرسل محمود في طلب كوبين من الشاي، ويناول عثمان أحدهما ليفتعل حوارا معه، يسأل وهو يحاول أن يتقمص دور المحقق: «وما الذي تفعله؟»

- «أبحث عن إيزاك دابروج».
- «صاحبك؟! تايه؟!»

يضحك عثمان ويقول: «لا، أقوم بعمل بحث عن إيزاك دابروج.. أتعرف؟! شاركت النيجر في دورة الألعاب الأولمبية لأول مرة منذ خمسين عاما بالتمام والكمال، هذا العام تكمل الخمسين، ولم نحصل قط على ميدالية طوال خمسين عاما سوى ميدالية برونزية وحيدة في ميونخ عام ٧٢، جلبها الملاكم النيجيري إيزاك دابروج، ورغم ذلك لا يوجد على الإنترنت أية صفحات عنه بالعربية أو الفرنسية.. ببساطة كأن إيزاك لم يكن، عبر في هذا العالم، وحمل وميض برونزيته ثم اختفى».

يشعر محمود بريبة لكنه لا يستطيع أن يخفي فضولا تجاه الرجل، يعاود السؤال: «ولم تبحث عن إيزاك دابروج؟ ثم إنني أسأل ماذا تفعل أي ماذا تفعل في القاهرة ليس ماذا تفعل على الإنترنت».

- «وجودي في القاهرة هو سبب بحثي عن إيزاك، أنا طالب من النيجر حصلت على بعثة في الأزهر الشريف، وأقيم في مدينة البحوث على مقربة، وطُلب مني أن أقدم بحثا عن أحد أعلام دولتي.. ففكرت في إيزاك لأنني كنت أتمنى من حكايات والدي أن أكون ملاكما..

لكنه ببساطة تلاشى، لا معلومة عنه سوى أنه ملاكم حصل على البرونزية الوحيدة».

يشد محمود الحوار فيسأل: «وكيف تذكر أنت إيزاك رغم غياب كل المعلومات عنه؟»

- «لأنه ترك في نفسي أثرا.. ربما لم أصبح ملاكما، لكنه ترك أثرا.. هل تفهمني؟»

يهز محمود رأسه، فيما يرن هاتف عثمان، يلتفت عثمان لمحمود ويسأله: «هل أحضرت سماعة أو كاميرا؟»

- «لا، فيم تحتاجها؟»

يرفع محموله ويقول وقد ظهرت عليه مشاعر الاشتياق: «عائشة، تريد أن تتحدث معي، لم أسمع صوتها منذ جئت، لا أدري إن كانت شبكة الإنترنت لديها ستسمح بذلك».

يتعاطف محمود مع الرجل للحظات، يراه شابا عاشقا، يقول: «عندي فكرة»، ثم يتراجع قليلا عن الاسترسال بفعل هاجس المحقق الأمني ويقول: «هل معك جواز سفرك؟»، يهز عثمان رأسه ويخرج جواز سفر، ينظر فيه محمود، يأخذه إلى ماكينة التصوير ويصور نسخة من بياناته، يضع النسخة بجوار الجنيه ذي القلب الوردي، ويناول جواز السفر إلى عثمان مرة أخرى، يسأله: «ما اللغة التي كنت تربطكم بها آخر مرة هنا؟»

- «الهوسا..؟»
- «ولا هوسا ولا كوسة، ما اللغة التي ستتحدث بها مع عائشة؟»
- «الهوسا».

- «سأجعلك تسمع صوتها بشرط، تترجم لي كل كلمة تقولانها من الهوسا إلى العربية».

يشعر عثمان بغرابة الطلب لكنه يوافق أمام رغبته في محادثة عائشة، يطلب محمود من عثمان أن يقسم على ذلك ويذكره بأنه أزهري، يمتثل عثمان للأمر، ينزع محمود السماعة المكتبية من الجهاز الثاني ويضعها في الجهاز الأول، ويقول: «هي لن تسمعك، لكن المثل المصري يقول نصف العمى أفضل من العمى الكامل.. ستكتب أنت لها وهي تتحدث فتسمعها».

يبتسم عثمان ويجلس بجواره محمود، ينطلق صوت «عائشة» من مكبر الصوت، يفتر ثغر عثمان ويبدأ في الترجمة من «الهوسا» إلى العربية، فعل محمود ذلك في البدء لشكه في عثمان لكن شيئا ما يطربه في الأمر، يشبك كفيه خلف رأسه ويريحها للحظات، يتأمل الجنيه ذا القلب الوردي، ويتخيل صورة أشجان في الفضاء.

حين مر حسام ليلا على محمود وجده شاردا، يبتسم لشتاء ديسمبر القارص، يخرج حسام سيجارة فيطلب منه أن يناولوه واحدة، يرفع قداحته فيشير محمود أنه لا يرغب في إشعالها، يطلب منه أن يساعده في إغلاق المحل، يسأله إن كان يعرف خطاطا ليعالج مشكلة اللوحة، يتململ حسام من السؤال ويدير الدفة إلى حيث يريد: «لا أعرف خطاطا، لكن أعرف من يرغب في شراء ماكينة تصوير المستندات خاصتك»، يترك محمود الإضاءة النيون كما اعتاد ويقول دون أن يهتم بحديث حسام: «بمناسبة البيع والشراء والمعدات، أريدك أن تبتاع لي ساعة مصحوبة بميكروفون، وكاميرا صغيرة من أجل برامج المحادثة».

(٩)

بعد صلاة المغرب، يدخل محمود إلى محل أسامة، مرتديا بدلة رمادية اللون يبدو أنه لم يرتدها منذ فترة، ممسكا في يده رابطة عنق سوداء عجز عن ربطها، ينظر بعض الشباب المنشغل بألعاب القتال إلى الرجل ويعاودون النظر إلى شاشتهم، يفهم أسامة طلب محمود دون أن يسأل، يضبط له رابطة العنق، يسأله عن وجهته، يخبره أنه مشوار قصير ويطلب منه أن يتابع محله حتى يعود.

ينظر محمود في المرآة القديمة الموجودة في مدخل العمارة قبل أن يصعد إلى الطابق الثاني ويطرق باب أشجان، تفتح السيدة وتفاجأ به لكنها لا تستطيع سوى إدخاله، يدلف فيشاهد عددا من السكان تجمعوا في منزلها، يبادرونه بنظرات الاستنكار والحيرة والاستهجان.

يجلس محمود وسط صمت الجميع، ينظرون إلى أشجان التي لا تفهم سبب زيارته، يقول حسني: «منور يا أستاذ محمود.. أتمنى ألا تكون مستاء

من شجارنا الأخير.. لكنه حق الملاك علي كرئيس اتحاد، وأتمنى ان تلتزم بوعدك قبل نهاية الشهر الحالي».

يهز محمود رأسه قائلا: «إن شاء الله».

يقول حسني كنوع من إنهاء تواجده: «شكرا لذوقك، اسمح لنا أن نبدأ اجتماع اتحاد الملاك».

- «أنا هنا من أجل هذا الاجتماع».

- «كيف؟!»

- «أريد أن أرشح نفسي رئيسا لاتحاد الملاك».

ينفجر حسني فيه قائلا: «كيف؟ أنت لست مالكا».

يجيب محمود بهدوء: «يبدو أنك نسيت، أنت تتكلم عن اتحاد ملاك، وليس اتحاد سكان، وأنا أمتلك في هذا العقار مثلك تماما، امتلك محلا بالأسفل قام عمالك بإفساد لافتته، ويحق لي التقدم للترشح».

يشتاط حسني مرة أخرى من حجة محمود، يصرخ فيه وهو يخرج قدرا كبيرا من الرذاذ من فمه، لم يسمع محمود ما يقال للحظات، التفت إلى أشجان ينظر لها، يشعر أنه اشتاق لها أكثر من كل مرة، لم يتحمل أن تخبره السيدة أن الجنون أصابه حين طلبها للزواج، حدثته أيضا أن ما يطلبه مخالف لما اعتاد عليه المجتمع، للخط الذي رسمه لأرملة مثلها مصابة بالسكر، أقنعته بألا يحاول أن يراها أو يتودد لها، أخبرته أنها كانت تستشعر إحساسه حتى دون أن يتكلم، حاسة الأنثى تظل كما هي حتى وإن بلغت من العمر عتيا، لذلك توقفت عن النزول إلى الصيدلية، اختارت عزلتها الإجبارية التي يفرضها المجتمع، لن تكسر النمط الذي يتوقعه الآخرون منها،

لن تسمح له بالدخول إلى مجاهل تلك الحياة الفارغة، لن تشاركه بأنفاسها ما يجيل حوائط الغرفة الثلجية إلى ونس دافئ.

تنظر إليه هي الأخرى وكأنها تتوسل إليه ألا يدك حصونها، حصون الأنثى التي عادة ما تنهار أمام إصرار رجل عاشق حتى وإن قارب الستين من عمره، تخبره ألا يرقص معها بتلك المودة وقدماها قد تعجزان عن مساندتها في تلك الرقصة، تسأله وتسأل نفسها عن السبب الذي لم يدفعه للظهور في حياتها قبل ذلك.

يشعر حسني بأن محمود لا يسمعه فيهزه من كتفه يعيده إلى أرض الواقع، يقول: «لن أسمح لك بهذا العبث».

يرد محمود بهدوء: «اتحاد الملاك مسجل في الحي، وإذا أجريتم انتخابات بدوني سأطعن عليها».

- «أتهدننا؟! طب لن نجري انتخابات الآن ولتخبط رأسك في أكبر حائط»، يلملم حسني أوراقه الخاصة بالعمارة ويخرج من الشقة وسط محاولات البعض التهدئة، تقف إحدى السيدات وتقول لائمة محمود: «الرجل يتولى أمور العمارة منذ أكثر من ١٠ سنوات، صحيح الفضا وحش».

يخرج محمود مهانا وسط نظرات السكان، وصمت أشجان، يشعر ببهجة مؤقتة في رؤيتها، تخرج خلفه أشجان في الممر الصغير المواجه لشقتها تسأله: «لماذا؟»

- «عرفت أنك تستضيفين اجتماعات مجلس الملاك الشهرية في شقتك، فوجدتها فرصة طيبة لأراك مرة كل شهر».

- «وهو العمر فاضل فيه كام شهر؟!»

- «شهر واحد.. يعني مرة واحدة بصحبتك، مائة شهر .. الله أعلم .. أنا لا أحارب الزمن.. أنا أحاول أن أقتنص منه ما يبقى من بعدي».
- «وما الذي تريده أن يبقى من بعدك؟»
- «في البدء كان ولدا».
- «ولدا! يا رجل يا عجوز!»
- «والآن أصبح ونسا».

(١٠)

يستوقف محمود عبد العزيز في طريقه إلى محل البقالة: «قل لي يا عب عزيز.. أي يوم خلال الشهر المقبل هو الفلانتين الذي أخبرتني عنه مسبقا؟»

- «لماذا يا عم محمود يا شقي؟»
- «مجرد سؤال».
- «لست متأكدا، يوم ١٤ أو ١٥».
- «طيب ومتى سيظهر إن كنا سنحتفل به يوم ١٤ أم ١٥؟»

يضحك عبد العزيز حتى تسقط الأكياس من يده ويقول: «هو هلال العيد يا عم محمود! الفلانتين يوم ثابت ١٤ أو ١٥ لكنني لا أعرف فعليا».

- «ممكن تسأل وتجاوبني؟»
- «حاضر.. لكنك لم تخبرني ماذا فعلت مع الجاسوس».

- «ليس جاسوسا، شاب غلبان من نيجيريا».
- «نيجيريا.. أجدع ناس.. يعني رشيدي ياكيني.. وكانو وأموكاتشي».
- «مين دول يا عبد العزيز؟»
- «أعظم لاعبي كرة في العالم في وقت من الأوقات.. أيام ما كانت المباريات يعني نيجيريا».

يجذب محمود عبد العزيز إلى الداخل ويفتح ملف للكتابة على الكمبيوتر، ويقول لعبد العزيز: «أعد ما قلته لي، عشان سيسر أن هناك أبطالا آخرين في بلاده».

يكرر عبد العزيز الأسماء، يكتبها محمود وهو ينطقها مرة أخرى ليتأكد من نطقها الصحيح.

- «رشيدي ياكيني».
- «ياااكيني».
- «كانو».
- «بالقاف ولا بالكاف؟»
- «لا أعرف يا عم محمود».
- «كانو».
- «أموكاتشي».
- «اااتشي».

يطرق محمود باب أسامة، ويدخل، يسأله أسامة عن أحواله، وعما سمعه من رغبته في أن يكون رئيسا لاتحاد الملاك، يضحك ويقول: «يا بختك

يا عم، أنا مجرد مستأجر»، يكمل ضحكه: «أهم شيء عندما تصبح رئيسا لاتحاد الملاك لا تستول على أموال كل عدة أشهر بحجة الطلاء والدهان».

يهز محمود رأسه وينظر حوله ويتأكد أن أحدا لا يسمعه وينتحي جانبا بأسامة ويقول: «هل من الممكن أن ندخل الإنترنت على الجهاز الثاني في المحل؟»

- «لماذا؟»

يخفض صوته أكثر: «لدي زبون يستخدم الإنترنت يوميا تقريبا في محلي، ولا أجد وقتا أو وسيلة للقراءة عن الطريقة التي عرفنا بها بوجود الديناصورات رغم أنها انقرضت قبل وجودنا».

لا يتمالك أسامة نفسه ويضحك، يلتفت له الشباب في المحل، فيقول لمحمود خافضا صوته: «لا تحمل هما، يمكننا أن نفعلها في أي وقت».

يخبره محمود بأن حسام سيمر عليه بعد قليل، وسيجعله يتولى الأمر، لأنه سيقوم بتركيب كاميرا وسماعة جديدة في محله.

(١١)

تفزع داليا حين دخل عليها محمود مصابا بجرح قطعي في جبينه، ينزف الدماء على عينه فتغطيها، بينما يحاول هو أن يضغط على الجرح بيده، تجلسه داليا على كرسي بلاستيكي، ويدخل خلفه أسامة، تحاول أن ترفع يده لترى الجرح، تخرج قطنا طبيا وبعض المطهرات، وتسأله بفزع عما حدث.

يجيب أسامة نيابة عنه: «لقد حذرته وأخبرته أن ما يفعله خطأ، لكنني لم أكن أدري أن الرجل الآخر مجنون بهذه الطريقة».

- «لا أفهم شيئا.. ما الذي حدث؟!»

- «وصله خبر أن السكان اختاروا رئيسا لاتحاد الملاك دون حضوره، فعزم على تلقينهم درسا طوال الأسبوع الماضي، يطبع مئات الأوراق مكتوب عليها (اتحاد ملاك باطل) ويغلق محله ويقوم بلصقها جميعا في مدخل العمارة لدرجة جعلت الواجهة الداخلية كلها من أوراقه، في اليوم الأول أزالوا الورق واعتقدوا أن محمود سيمل أو سيكف

عن أفعاله حتى لا يهدر هذا الكم من الورق وأحبار الطباعة كل يوم، لكنه كان يزيد بنفس الإصرار».

يضحك محمود ويحاول أن يتحدث: «أنا لا أعرف في الحياة سوى أن أكتب أوراقا وأنسقها جيدا، كنت أتفنن في فعل ذلك ويطربني صوت هدير الطابعة، لم أفعل سوى ما أستطيع فعله، ما تعودته يوميا، شعرت طوال الأسبوع الماضي أن في مهنتي سحرا وقوة».

تحاول داليا أن تهدئه حتى تستطيع أن تداوي جرحه، تخبره أنه جرح سطحي، ثم تستفسر عن كيفية حدوثه، يجيبها أسامة أن حسني استشاط غضبا من الأوراق، فنزل إلى محمود واشتبك معه بالأيدي ودفعه فسقط عن درج المحل ليصطدم رأسه بالدرج.

يعرض محمود ثمن ما فعلته داليا فتأبى، وتخبره أن الحالة هذه المرة إنسانية، يستأذن محمود أسامة أن ينصرف حتى يستطيع أن يعطيها أموالها، يقول: «شكلها مكسوفة أحاسبها أمامك».

ينصرف أسامة، يلتفت محمود إلى داليا فتبتسم وتقول: «هي كويسة.. بخير».

- «أفكر في أن أعد لها مفاجأة في الفلانتين».

تضحك داليا بصوت مرتفع وتعلق: «فلانتين مرة واحدة.. دباديب ولا قلوب حمراء؟»

- «لا، أفكر في أن أملأ مدخل العمارة بعبارة (تتجوزيني؟).. أنت تعلمين جيدا..»

تقاطعه: «أعلم.. أنت لا تجيد سوى الكتابة والطباعة.. أتريد أن تتزوجها فعلا؟»

- «نعم، أحلم بذلك كل يوم، تقريبا أصبحت أمنيتي الأخيرة».
- «وتريد طفلا يا رجل يا مجنون؟»
- «لا، لم أعد أريد ذلك، أريد فقط أن أترك أثرا محببا في نفسها حين توافيني المنية قبلها.. أريدها أن تترحم علي وتحكي عني، أريدها أن تعرف أنني أحببت صفحات الأخبار أكثر من الصفحات العلمية، وأنني أعزب أتناول التونة والفول ونادرا الطبيخ البيتي، أريدها أن تشاهد معي أفلام فؤاد المهندس».
- «وما المطلوب مني؟»
- «أنت تعلمين أنها اتخذت قرارا بالعزلة، لا تنزل إلى الشارع، أريدك أن تجبريها على النزول يوم الفلانتين».
- «كيف؟!»
- «لا أعلم.. دعينا نفكر».
- «يمكنني أن أخبرها بأنني أعمل يومها بمفردي وأحتاجها أن تزورني من أجل الحقنة لأنني لن أستطيع الصعود».
- «من الممكن أن تتغاضى عن الحقنة يومها وتؤجل النزول».
- «لا يمكن لمريض سكر أن يتغاضى عن العلاج.. سأزلها يومها.. ادع لي».

يداعبها قائلا: «سأسمي أول ابنة لنا داليا لو فعلتيها»، يضحكان وهي تتمتم: «أنت رجل مجنون».

(١٢)

يحضر عثمان بصحبة صديق أفريقي آخر له، يعرفه عثمان بأنه عثمان أيضا لكنه سوداني، يسأله محمود عن سبب غيابه فيعلل عثمان أنه أسبوع امتحانات، يعرب محمود عن اشتياقه له ويخبره بأنه يجهز له مفاجأتين، يشير إلى الكاميرا وساعة الرأس، فيسر عثمان ويقبل محمود، ويسأله عن الثانية، يتجه محمود إلى الحائط الخشبي وينزع ورقه وضعها بجوار جواز سفر عثمان ويقرأ ما فيها: «رشيدي ياكيني.. كانو .. أموكاتشي».

يسأل عثمان في حيرة: «من هؤلاء؟»

- «أشهر لاعبي كرة في نيجيريا.. أبطال من بلادك».

يخبط عثمان بيده على رأسه ويقول: «حاج محمود.. أنا من النيجر».

- «يعني أنا لما بسلم على أحدهم أقول أنا مصري.. ماذا تقول أنت؟»
- «أنا نيجيري».

- «وأين الاختلاف إذن؟»

- «بووووه.. ليس هناك اختلاف».

يجلس كل عثمان على أحد الجهازين، كلاهما عاشقان، يخرج محمود الجريدة الورقية ويفتح صفحاتها من الخلف إلى الأمام، يتوقف عند صفحة الوفيات، يتناول قلما من فوق أحد المكاتب، يبدأ في تحديد الوفيات التي لا تدعى محمود، تتحول الصفحة تدريجيا إلى اللون الأزرق، يجد أن أعدادهم تفوق نظراءها ممن يدعون محمود.

يقتحم المحل رجلين يرتديان قمصانا وبناطيل، وتبدو على هيئتها الجدية، يصرخ أحدهما: «من صاحب هذا المحل؟!»، يجذب الأمر المارة، يصيح عبد العزيز وهو يرتدي دراجة ويحمل أرغفة الخبز: «قلت لك جواسيس يا عم محمود»، ويفر هاربا، يرد محمود: «أنا صاحب المحل».

يرد الرجل: «شرطة مصنفات فنية، وردتنا شكوى أنك تضع برامج مقرصنة على أجهزتك».

وبسرعة وثقة، تمت مصادرة الجهازين، وتشميع المحل، وتحرير محضر بالواقعة، ورحلا سريعا، يقف محمود والثنائي عثمان خارج المحل الذي أصبح خاويا إلا من ماكينة التصوير، يقترب أسامة من محمود محاولا أن يهون عليه، يسأل محمود بهدوء: «هل لديك برامج مقرصنة على أجهزتك يا أسامة؟»

- «نعم، كلنا مقرصنون».

- «ولماذا لم تفكر شرطة المصنفات في زيارتك ومحلك يبعد ٤ خطوات عن محلي؟»

- «نعم!! لا أعرف».

- «أتدري لماذا انقرضت الديناصورات؟»

- «يا دي الديناصورات التي محت عقلك!»

(١٣)

طوال أسبوع يجلس محمود في منزله محاولا التفكير في طريقة لدفع الغرامة لاستعادة جهازيه وفتح محله مرة أخرى، يباغته الوقت واقتراب موعد الفلانتين، يتمنى إعادة فتح محله لأنه باب رزقه، لكنه يتمنى أن يفعلها أكثر ليستطيع الوفاء بالمفاجأة التي يعدها لأشجان.

قبل الفلانتين بيوم مر محمود على صيدلية داليا، كان ضروريا أن يظهر بعدما أغلق محله بفعل وشاية أصبح على يقين نفسي بأن حسني وراءها، لم يستغرق وجوده في الصيدلية سوى بضع دقائق، تحاشى المرور على أسامة حتى لا يظن أنه في حاجة إلى المال، ورحل مبكرا إلى منزله، يجلس بجوار الهاتف متأملا الفراغ، يتخيل أشجان في الكرسي المقابل له، يبتسم لطيفها، فتبادله الابتسام، يمد يده إلى ورقة اصفرت دون أن تجيب على سبب انقراض الحوت الأبيض، ولم توضح إن أفلحت جهود إنقاذه، يتأمل

اسم السهيتي ورقمه في الجزء العلوي، يترحم على الرجل، ويطوي الورقة ويضعها في جيبه.

لم تستطع داليا أن تخبر السيدة أشجان بألا تنزل يوم الفلانتين كما أخبرتها قبل يومين حتى لا تبدو أمامها كاذبة، كما أن محمود لم يكن يتمنى ذلك، ينتظر نزولها الدرج ويسمع صوتها وهي خارجة من البناية تنادي عبد العزيز، الأخير الذي كلف محمود ١٠ جنيهات كاملة ليقف بطرف اللافتة البلاستيكية الضخمة التي تمتد ٦ أمتار، بينما يمسك طرفها الآخر أنس السهيتي الذي صنع اللوحة في ساعة زمن كما كان يخبر محمود، لم تكن اللوحة بخط اليد كما اعتاد «مأمون» والده على الكتابة، لكنها كانت جميلة أو هكذا شعر بها، كتب فيها «اتجوزيني يا ست أشجان».

تشعر أشجان بالحرج من اللوحة وتحاول أن تتراجع فيتقدم محمود عدة خطوات ويقول لها: «كل سنة وأنتِ طيبة.. كل هذه المدة لم أرك».

تصمت أشجان، تنظر للرجل، تنظر إلى عيون الشارع المتطلعة، تحاول أن تبدو جدية: «يا رجل.. لقد كبرنا على تلك الأمور».

- «أخبريني أنك تمتلكين حياة ثانية تستطيعين أن تعيشي فيها أسعد».
- «لا أمتلك إلا تلك الحياة البائسة التي أعاني فيها من السكر وتعب قدمي».
- «إذن لنتشارك تلك الحياة.. لا شيء آخر يمكننا فعله».
- «ابني لن يرضى بزواجي منك».
- «ابنك يعيش حياته الآن بصحبة آخرين ويستكثر عليك ألا تعيشيها وحيدة؟»

- «وماذا سيقول الناس عنا؟»
- «عجوز مخرف تزوج سيدة مجنونة يحبها».
- .....
- «هل تتزوجيني؟!»
- .....

(١٤)

لم تكن أشجان تعلم أن ابنها سيطردها من الشقة ويبيعها حين تخبره بقرار زواجها، باع الشقة وأرسل محضرا مع محاميه لتنفيذ الأمر، اضطرت داليا أن تذهب بصحبة عبد العزيز إلى منزل محمود ليخبراه بالأمر.

يخرج محمود ببجامته، ويهرول معهما حتى يصل إلى البناية حيث يجد أشجان تجلس على كرسيه الأبيض أمام محله المغلق وبجوارها حقيبة ملابسها، ودموعها لا تتوقف عن الانهمار، يناولها محمود مفتاح شقته ويخبرها أنها يمكن أن تبيت هناك وأن يعقدا قرانهما غدا.

ترفض في البداية، ثم تسأله عن المكان الذي سيبيت فيه ليلته، يشير إلى محل أسامة ويخبرها أنه سيقضي الليلة هناك، وسيمر عليها عصرا.

في محل أسامة، يجلس محمود مفكرا، يجد أحد الأجهزة خالية، فيشير له أسامة ليخرجه من شروده: «الجهاز اللي هناك فاضي.. يمكنك أن تستخدمه لتعرف كل ما تريده عن الديناصورات».

ينهض محمود متثاقلا ويجلس على الجهاز، ينظر إلى الشاب الجالس بجواره ويسأله: «يا ابني.. ممكن تقوللي ألعب اللعبة بتاعت البوازيك ازاي؟»

يضحك الفتى ويقرر تعليمه، يتحمس محمود ويشعر ببهجة لم يشهدها من قبل، يقتل ويُقتل، يعافر من أجل البقاء لأطول فترة ممكنة على قيد الحياة، تظهر المرات تحسنا ملحوظا في أدائه، ينتصر نوعا فينتفض من مكانه فرحا.

في الصباح تحرك مع حسام ورجل آخر تجاه مباحث المصنفات حيث دفع الغرامة واستعاد جهازيه، وقام أحد العساكر باصطحابهم إلى المحل لفتحه، يتحرك الرجل وحسام تجاه ماكينة التصوير ويقول حسام للرجل: «هي دي يا معلم العروسة اللي كنت بكلمك عنهم.. أسطورة الفوتوكوبي في عبده باشا»، يبدي الرجل حماسة ويرفع محموله طالبا سيارة نصف نقل، يقول لمحمود: «مرضي يا عمي؟!»، يهز محمود رأسه ويربت على الماكينة ويقول: «حلال عليك.. يكفيني أنني استعدت عثمان»، يسأله الرجل: «من عثمان؟»، يضحك محمود: «أنا أسمي الجهازين عثمان».

في الظهيرة، يدخل محمود مسرعا إلى محل أسامة الذي جاء خصيصا له، يقول في عجالة: «الحاجة عندك؟»، ويتحرك إلى محله مرة أخرى حيث يصطحب الأفريقيين إلى منزله ومعه مأذونا، تندهش أشجان من الرجلين اللذين اختارهما زوجها كشاهدين، يحاول أن يقنعها: «إنهما أزهريين»، تهمس له: «ولو»، يقول: «إنهما عاشقان»، تهمس له: «ليس مبررا»، فيقول: «أحدهما من نيجيريا»، حينها يخرج عثمان من صمته ويقول «النيجر.. النيجر والله العظيم».

تنتهي إجراءات عقد القران فيصحبها إلى البناية التي ترفض أن تزورها في البداية، يخبرها أنه يحضر لها مفاجأة، يشير إلى المحل الذي وضع فيه أسامة

الأجهزة، وبدأ الشباب يباشرون ألعابهم الإلكترونية فيه، يشرح لها أنه اتفق مع أسامة على مشاركته، يجعلان المحلين مكانا للوافدين الذين يبحثون عن معلومات أو دردشة أو ونس عائلي صباحا، ومكانا لمرح الشباب في المساء، تسأله أشجان وهي تشير إلى اللافتة المكتوب عليها «فوتوكوبي» بدون اسمه: «وماذا عن اللوحة؟»، يفكر محمود مليا ويجيب: «غالبا سأبقيها كما هي..».

رعشة السيد «بلي»

ما قاله حسين الميناوي لها

هل أخبرتك من قبل يا لونا أن للوجع ذاكرة تحتفظ بالتفاصيل وتعيد الاحتفال بذكراها في موعد ثابت؟ حدث ذلك لزوجتي مسبقا حين عانت من تليف في الكبد واحتاجت إلى زرع فص ودعامات، ظل للجرح العرضي الذي أحدثه مشرط الطبيب ذاكرة قوية، يعيد تأليب الوجع في ذكراه السنوية، كانت زوجتي تقول لي ذلك ولم أصدقها، الأمر ضد قواعد العلم التي درستها، كانت تصرخ من الألم وترفض أن أتحسس بطنها في تلك الأيام، الحمد لله أنها لم تتألم كثيرا.. وأن ذاكرة وجعها لم تكمل عامها الثالث.

لا عجب أن تشعري بما تشعرين به يا لونا، الأمر ليس سهلا على الإطلاق، حرارة الشمس حين تلهب ثديي في مارينا حتى يكتسبان اللون البرونزي الذي يزيدني وسامة وفحولة.. أشعر وأن حريقا شب بداخلهما، أضع بعض المرطبات حتى أستطيع النوم، ما بالك وأنتِ تتحسسين صدرك فلا تجدين بعضا منه، لن أقول إنني أفهم شعورك لأنني لن أفهم شعورك

مهما حدث، يمكنني أن أفهم جزئيا كيف كان لهذا الصدر الأنثوي بريقا متلألأ في أعين عشاق رقصك، وفي زهوك بهذا الشغف الهائل وتلك المقل الرجراجة بثبات ووتيرة متزامنة مع ترجرجها عبر فستان الرقص.

الحقيقة يا لونا أنني لست من معجبينك الذين يملأون القاعات ويتهافتون لحمل كاميرا المحمول لتصوير رقصاتك في الأفراح، ليس لأنني أكرهك لا سمح الله لكنني لا أجد وقتا لأتابع حركة الرقص الشرقي في مصر، ربما شاهدتك مرة أو اثنتين على التلفزيون تدافعين عن أحد أفلام العيد التي ظهرتِ فيها مؤخرا، أعرفك بحكم جلسات نميمة الأصدقاء في النادي كل جمعة، إلا أن وقتي لا يسمح لي بالسهر، أضفي إلى ذلك أمرا لن تفهميه جيدا كما لن أفهم مهما حييت واقتربت شعورك بالوجع.. إن العمل على إزالة أثداء متحجرة أو يابسة أو بها نتوء أو بقع اكتشفتها صاحبتها متأخرا يضع حاجزا بينك وبين هذا الجزء الذي يراه الآخرون محركا للغرائز.. غريزة واحدة أصبحت تربطني بهذا الجزء.. هي غريزة الأم الذي تتجدد ذكراه بالنسبة لي كلما شاهدت واحدة من مرضاي.

عادة ما تكون نصيحتي لتجاوز الفترة الأولى هي الاقتراب من الله.. قراءة القرآن أو السفر لأداء العمرة أو المواظبة على زيارة الكنيسة، يدفعني إلى ذلك عامل السن للمتعافيات، لكن حالتك يا لونا شديدة الغرابة والتعقيد بالنسبة لي، سأكون فظا لو قلت لك واظبي على قراءة القرآن لأن كلماتي يمكن تأويلها بأن ما حدث لك هو عقاب إلهي، والمرض ليس عقابا كما يشيع البعض أو هكذا أظن، فلو كان عقابا.. إذن لماذا خلق الله مهنتي؟ ما أستطيع أن أنصحك به يا لونا ربما يتشابه نوعا ما مع ما أقوله دائما، سافري.. ابتعدي قليلا وشاهدي الصورة من بعيد.. ابتعدي عن الأضواء والمعجبين والصحافة التي تحاول التأكد من الخبر، ابتعدي قليلا عما يزيد توترك لأن الاستجمام يساعد على التعافي.. ابحثي عن أشخاص تجدين

في ثناياهم إلهاما لك ودافعا على تجاوز المحن.. لو كنتِ تجيدين الإنجليزية لنسخت لك مجموعة من محاضرات «تيد» حول العالم لتكون مصدرا لهذا الإلهام.. لكنني متأكد أنك لو بحثتِ حولك لوجدتِ ذلك بنفسك.

(١)

يقولون عن «بلال» إنه يجيد الغواية.. إنها الغواية التي تجعل الأشياء أجمل.. تلك الغواية التي تلمحها حين تتواجد في أحد الأفراح في عيني إحدىٰ الفتيات أثناء الرقص، لتجعلها الأجمل والأفضل رقصاً وإن لم تكن كذلك بالفعل، تلك الحركات البسيطة التي تكوّن داخلك تفاعلا لا تستطيع أن تفسره سوىٰ بكلمة واحدة.. الغواية، حين تقرر الفتاة أن تطيح بحذائها ذي الكعب العالي لتتحرر من سطوته وترقص حافية، ناسجة مع الإضاءة والموسيقىٰ شغفاً محبباً في النفس، تفوق سطوته حدود إثارة العري التقليدية، الأمر الذي يجعل في حركة الراقصة «دينا» الشهيرة التي تضع فيها إصبعها بجوار أنفها وهي تبتسم جمالا يفوق حدود ما تبرزه من فستان الرقص أو ما يتفجر منه، لذلك كان «بلال» الأفضل، لأنه فهم معنىٰ الغواية والاشتهاء، أن يشتهيه النساء وربما الرجال الأجانب وقت يبدأ في وصلته الراقصة في أحد المقاهي البدوية الواقعة في خليج نعمة، والتي مثل نظائرها عجزت

عن دفع أجر الراقصة، علاوة علىٰ رفض الراقصات الرقص في مكان مكشوف للمارة في الشارع الأشهر بشرم الشيخ، لذلك استعاضت تلك المقاهي عن الراقصة بفقرات تميزها: راقص التنورة، العصا والتحطيب، المزمار الصعيدي، والمونولوجست لمن استهدف زوار الخليج، إلا المقهىٰ الذي يعمل «بلال» لحسابه، فقد تميز بوصلة الرقص البلدي التي يتقنها، يرتدي جلبابا أبيض بخطوط زرقاء طولية، ضيقا قليلا، قصيرا يكشف عن جزء من ساقه الصعيدية السمراء، ويربط حول خصره وشاحا بدويا مزدانا بـ «ترتر» ذهبي اللون، تخلق حركته الناتجة عن تمايل خصر «بلال» انعكاسا للإضاءة المتغيرة في صالة المقهىٰ لا يستطيع أن يحجب العيون عن غواية «بلال»، وما يمتاز به من رقص لا يشبه الرقص الاستعراضي لفرقة رضا مثلا أو رقص الأفراح، لكنه ذلك الرقص الذي تراه حين تقرر عشيقتك أن تسكب كؤوس الغواية في منزلك قبل أن تضاجعك مباشرة، ذلك الرقص الذي يروج له عمال المقهىٰ وهم يجذبون المشاة في ممر خليج نعمة «belly dance.. belly dance»، ولهذا السبب تحديدا، تحول «بلال» إلىٰ «بلي»، وأصبح الجميع ينادونه بـ «بلي» حتىٰ نسي هو الآخر اسمه.. أو ربما ـ كما يقولون دائما ـ أنه ارتاح في جلباب «بلي».

ما قاله الدهشوري لها

ابتعت لك ما طلبتيه يا مدام ابتهال.. آسف نسيت.. يا مدام لونا.. لكن ما الضير أن أقول لك ابتهال مادمنا نتحدث بمفردنا.. أعرف أنك تخافين أن أخطئ فتقع مني ذلة لسان أمام أحد عشاقك.. لكن لا ضير الآن من أن أفعل لك.. أنت لا تقابلين أحدا منذ سافرتِ إلى شرم الشيخ، حتى أنا تحرمينني من رؤيتك رغم أنك كنت تأتمنينني حتى على جسدك، تتقين في وتعلمين أنني لن أنظر لك باشتهاء، تعلمين أنني أجيد وضع علاقات عمل مناسبة ولذلك تفاهمنا.. حتى المخدر الذي أبتاعه لك ترفضين أن أجلبه، ترسلين لي أحدهم دائما، هذه المرة ابتعت ما يمكنك أن تسميه «إشي خيال»، لا .. بل هو بالفعل يحمل هذا الاسم من الموزع.. مفعوله أقوى وسيقلل إحساسك بالألم.

كان شقيق جدي من محاربي ٥٦ أو ٦٧.. لا أذكر، وبترت ساقه، لم أعاصر الرجل إلا في سنوات عمري الأولى إلا أن الفضول يعتريني الآن

لمعرفة هل الساق المبتورة تؤلم صاحبها؟ السؤال رادوني ثانية بعد العملية الأخيرة التي أجريتها، وقادني احتياجك للمخدر إلى أن المسكنات التقليدية لا تشفي الألم.. بل تزيده، برغم أنني واثق أنه يمكنك الاعتياد على الوجع مثلما يعتاد الشخص الوجع الحادث في إصبعه «المدوحس» لعدة أيام.. أو مثلما فعل يحيى البرنس.

سأخبرك عن صديقي يحيى البرنس الذي اعتاد الألم حتى أحبه، كان دائما عجبا للفتيات عاشقا لإقامة علاقات معهن، وحين انخرط في العمل للسينما كمساعد إنتاج ساعده الأمر كثيرا ووجد في العديد من الكومبارس أو الفنانات المتواضعات مادة خصبة لإقامة علاقات جنسية، يصطحب الفتاة ليلا إلى شقته ثم يفيق نهارا شاعرا بالندم وبضرورة التطهر من الذنب وإقامة الحد حتى يبرأ من الدنس، يبتاع كرباج سوداني، ويطلب من صديقه خليل أن يجلده مائة جلدة، في المرة الأولى كاد يتوقف عن فعلته من شدة الألم ثم اعتاد الأمر، لدرجة أن في إحدى المرات بعد إجازة عيد الفطر تحمل ٣٠٠ جلدة مرة واحدة من خليل.. لماذا كنت أقص عليك تلك القصة.. يووه نسيت أيضا.. ما علينا.

هناك أمر آخر أحاول أن أتذكره.. بسم الله الرحمن الرحيم.. يبدو أن الحشيش لحس عقلي.. آه تذكرت.. كل الأمور والتعاقدات كما هي، أخبرت الجميع أنك في إجازة مفتوحة ٣ أشهر حتى تعودي لفسخ تلك العقود بنفسك، عدا محسن سليمان مدير الحفلات في الماريوت رفض الأمر وطلب مكالمتك بنفسه، وصرخ وهاج وماج وأخبرني أننا في موسم الصيف، حاولي أن تتواصلي معه.

أمر أخير.. لم أسمع عن راقص في شرم يدعى «بلي» من قبل، لا أدري سبب إصرارك على جمع معلومات عنه، حتى إنني سألت ريتشارد ولم يعرفه.. وسألني متى ستعاودين التدريبات معه لكنني لم أعطه جوابا شافيا.

(٢)

يقولون عن «بلي» أنه من القلائل الذين لا يجيدون الرقص الشرقي بل يفهمون فلسفة حركاته أيضا، نادرا ما تجد رجلا أو حتى امرأة يجيد «التوينكة» بتلك المهارة، تلك القدرة التي تجعلك منبهرا من رسم دائرة تامة الاستدارة بيدك المجردة دون الاستعانة بأدوات هندسية.

يقولون عن «بلي» إنه يحتاج لأسبوعين لكي يعود إلى «بلال» الذي يعرفه والده المسن، يقضي «بلال» أسبوعيه الأخيرين قبل السفر إلى سوهاج لرؤية عائلته في إطالة شاربه، إطالته حتى يصبح كثا كثيفا يشبه الهيئة التي اعتادوه بها، يعللون الأمر بأن والده قد يبرأ منه إن عاد إليه حليق الشارب، ناهيك عما قد يفعله أعمامه وأخواله وأبناء عمومته، سيحدثانه كثيرا عن الصورة الذهنية التي قد يتركها هذا الأمر في نفسي ولديه التوأم.

يقولون أيضا إن «بلال» لم يكن يعنيه في هذا الأمر سوى ولديه اللذين التحقا بالدراسة الابتدائية في معهد أزهري مؤخرا، لا يعنيه الخوف على

صورته الذهنية، بقدر ما يعنيه الخوف على الولدين نفسيهما، يعتبرهما عائلته الحقيقية، الغواية التي تتحرك في قلبك بتلك العزوة من البنين، صحيح أنه لا يقضي معهما سوى أسابيع قليلة في العام لكن ذلك كان كفيلا بزيادة اشتياقه لهما ومحبتهما.. يعدل «بلال» وضع شماسة السيارة البيجو الأجرة التي يستقلها في طريقه إلى سوهاج، ويفتح المرآة الصغيرة الموضوعة في خلفية الشماسة، ينظر إلى شاربه، ويضبطه بسبابته وإبهامه، يطمئن نفسه من هاجس الكثافة المطلوبة لشاربه، وكأنه يتأكد من جواز عبوره إلى منزل والده وأعمامه ليرى طفليه، لم يعد يعنيه في هذا المنزل الأب العجوز الطاعن وأبناء عمومته الأغبياء، وذلك الضيق الذي يراه في منزل مكتظ بعائلة فقيرة على عكس الرحب المفتوح أمامه في ساحة الرقص.

حين ماتت زوجته بعد ولادتهما إثر حمى النفاس، كان «بلال» على استعداد أن يعطي الولدين لعائلة زوجته لتربية الرضيعين، بينما رفضت عائلته بدافع «العيب» واعتبروها إهانة لهم، انتصرت إرادة الأب وإخوته، وقضى الطفلان أعوامهما الأولى بصعوبة شديدة، خاصة وأنه انتقل مؤخرا للعمل في شرم الشيخ كعامل بناء في أحد المشروعات السياحية التي توقفت بعد أقل من شهر نتيجة مشكلات مادية، وبالتالي تحول «بلال» إلى «بلي».

ما قاله أمجد سركيس

هناك نوعان من عمليات الترميم: إعادة ترميم فورية، وقد استبعدها طبيبك المعالج وأنت معه للاطمئنان لزوال الورم، وعملية ترميم آجلة، وهو الحل الوحيد أمامنا الآن، دعني أخبرك أمراً، عمليات الترميم هي الأصعب والأكثر ثقلا على نفسي، أعشق بقية عمليات التجميل الأخرى، أشعر معها بأنني ساحر أو نحات أقوم بمداراة الوجع المتجسد في صورتك التي ترينها في المرآة كل يوم، مداراة الوجع.. وجع، أخبرتني أن جدتك كانت تدراي عنكم الوجع لحظة احتضارها وهو ما كان يؤلمها أكثر.. أوافقك وأزيد أنه كلما كان الوجع كبيرا كلما تطلب إخفاءه عن الأعين مجهودا كبيرا يضاهيه في حجم الوجع ذاته.

لذلك فعمليات الترميم متعبة.. ها هي مطفأة السجائر حتى لا يتساقط رماد التبغ على الأرض.. لا عليكِ يا لونا.. سأجلب لك واحدة أخرى.. يا ناهد.. ثانية واحدة من فضلك.. اطلبي من البوفية قهوة لمدام لونا.. دوبل

دخيلك الله، لاحظي هنا أنني استخدم مصطلح عمليات لأنني أميل إلى الدقة، يجب أن تعلمي قبل أن نبدأ أن الأمر لن يتم بعملية واحدة، فبعد عملية الترميم تأتي عملية زرع الهالة والحلمة وهو أمر اختياري ويحتاج إلى عدة شهور بعد العملية الأولى، وقد نحتاج إلى إجراء عملية في الثدي السليم لتكييف شكله مع الثدي المرمم وهو أصعب ما في الأمر.

الأمر أيضا يتطلب استعدادا من ناحيتك، سيستلزم الأمر إقلاعا منك عن التدخين.. قهوتك قبل أن تبرد، واعذريني فيم سأقوله لكنني طبيبك وليس هناك سر بين الطبيب ومريضه، سيحتاج إلى الإقلاع عن المخدرات التي تتعاطينها، عيناك وانتشاؤك يفضحان الأمر بشكل واضح للعيان أو على أفضل تقدير لطبيب في عام الامتياز، وأرى أن حالتك تلك لا تساعدنا حتى على اتخاذ قرار، فعليا أخشى أن آخذ موافقتك الآن على محمل جد، لذلك فالإقلاع عن المخدر أمر ضروري جدا، وبعيدا عن ذلك.. فالمخدر خطر على عقلك.. لا أريد أن أصدمك بأن موعدنا كان الثلاثاء واليوم هو الإثنين، حين رآك ممرضي كاد يخبرك ثم تراجع حين وجدك منتشية.. أنت تفقدين الإحساس بالزمان والمكان.

يبدو كلامي جافا لكن المريض يحتاج إلى المخدر أثناء العملية فقط ليس قبلها أو بعدها، لذلك لن أخدرك بكلام معسول عن العملية، سأخبرك بالأمر الأهم وهو أنه بعيدا عن شكل الثدي فإن المراكز الحسية الموجودة فيه لن تعود على الإطلاق.

(٣)

يقولون إن «بلال» حين نهض متأثبا من سريره في الحادية عشرة صباحا بسبب إصرار جرس محموله على أن يجد مجيبا، مد يده إلى الكومود المجاور للسرير، ورد ليجد أحد أبناء عمومته ينطق بجملة واحدة «البقاء لله يا بلال.. أبوك مات».

يقولون إن «بلال» انتفض ملتاعا من سريره بعد تلك المكالمة، ليس لفقد والده الذي لم يعد يربطهما شيء سوى التعود، لكن لتحقق هاجسه الأكبر، مد يده إلى الكومود ووضع التليفون، وأمسك المنبه، نظر في الانعكاس النصفي الذي يصنعه زجاجه لصورته، رأى شاربه الحليق، وضع يده على فمه، دارت في ذهنه الطامة الكبرى التي تنتظره، خاصة وأن الموقف المهيب للعزاء والجنازة سيجعل كل أهل القرية يحجون إلى الصوان، سينظر إليه الجميع مطلقين سهامهم تجاهه، وربما يفعلها أحدهم وينطقها صراحة: «الحمد لله أنه مات ولم يرك هكذا».

يقولون إن «بلال» ينتفض مفزوعا من سريره كلما خالج شعوره ذلك الحلم، يتأكد أنه كان حلما، يتحسس وجهه، ويجد نفسه غارقا في عرقه البارد إثر حلمه الكابوسي، يمد يده إلى الكومود متناولا زجاجة الماء فيملأ جوفه وهو يبسمل ويحوقل، يشعر أن تكرار الحلم للمرة الثلاثة خلال شهر واحد عذاب لا يقل عن الثقل الذي يتهاوى من سيزيف كلما ارتقى به، نوع من العذاب البطيء لسيناريو يخشاه أكثر من وفاة والده.

في الحادية عشرة صباحا ينهض «بلال» أخيرا، يقرر أن يجري اتصالا ليسمع صوت ولديه، لكنه حين ينظر إلى الساعة يدرك أنهما في مدرستهما في نفس التوقيت، فيؤجل الأمر، ويضع محموله بجوار المنبه وكوب الماء الفارغ، ويغط في نوم مضطرب آخر حتى يتمكن من أداء وصلته الليلية.

ما قاله أبو المكارم لها

حمالة الصدر هي السر كله، لو كنت معي أثناء محاضرتي الأخيرة في جامعة ديسبورج عن تاريخ ملابس الرقص في الشرق الأوسط لاندهشتِ بالحضور والتصفيق التاريخي.. أعتقد أن العدد فاق مائتي مشارك، أنت تعرفين دوري، حولت راقصات نكرات وقبيحات إلى أسماء في السوق بسبب بدلة رقص تكلم عنها الجميع حين رآها، أو كانت حديث ولاد الناس حين نشرت صور الرقصة في موقع «كايرو زووم»، وفي نفس الوقت مثار حديث الرجال عنها في مقاهي عابدين حين تفاجئهم الأغنية في قناة شعبيات. اليوم أصمم بدلات رقص بتكلفة كليب كامل.

لكنك كنت دائما حالة استثنائية بالنسبة لي، جمالك الأخاذ المائل إلى السمرة الذي يلهب المصريين والأجانب على حد سواء، جسدك المنحوت من الكهرمان كلما سقطت عليه إضاءة المرقص، متعة التصميم لك تغنيني عن كل محاضراتي العالمية أو التصميمات التي تطلب مني في عروض دولية،

أو جعني رؤيتك على تلك الحال حين طلبتني مؤخرا لتخبريني أنك تنوين العودة للرقص وأنك تطلبين مني بدلة رقص بمواصفات خاصة تداري ما تنوين إخفاءه عن الجمهور، وفي نفس الوقت لا يفضح الشائعات التي انتشرت، الوجع هو أن يتغير الحال من حولك، أن يخونك الأحباء أو يموت الأقرباء أو يستقيلوا من حياتك، الوجع دائما ما يأتي في التغيير، تذكرين حين تحدثنا وقت علاقتك بـ «حسن الفايز» وأخبرتك أن السياسة ستغيره، فلما تغير طلبتني لتبكي، صحيح.. ما أخبار خالد الوكيل معك؟ لم أر أسمع منك عنه منذ العملية؟

يبدو أنني أثرت موضوعا لا يجب أن أثيره، لا تبكي.. سأضحي بمنديلي الحريري من أجل ألا أرى دموعك، هاك.. أرجوك، سأحاول أن أبهجك.. لقد وجدتها.. نعم وجدت التصميم الذي ترغبينه، وكما قلت لك حمالة الصدر هي كلمة السر، دائما ما كنت تعشقين حمالات الصدر الضاغطة التي تبرز ثدييك ولا تميلين إلى التصميمات المغلقة من الصدر، سنعتمد على بدلتين، الأولى كلاسيكية مغلقة من الصدر مفتوحة الظهر والقدمين لتعوض ما يخفيه الجزء العلوي، الثانية هي المفاجأة، راعيت فيها كرهك لما كان صدره مغلقا، سنعتمد على الجلباب البلدي الأبيض، بخطوط طولية زرقاء ستكسبك طولا، تماما كما وصفتِ ذلك الراقص الذي حدثتني عنه آخر مرة، «بلي» على ما أظن، لقد زرت الكافيه الذي وصفتيه لي حتى أشاهد رقصه أو جلبابه لكنني لم أجد أحدا هناك يؤدي فقرة رقص، ربما كانت إجازته، لكن لا يهم، أنت تعلمين أن أبو المكارم لا يحتاج إلى ذلك، فتاريخي في التصميم، بل ومستقبلي سيدهشانك، جعلت الجلباب يحوي على فتحة عرضية، لا ليست دائرية كالبدل التقليدية التي تظهر فيها حمالات صدر من البدلة بلون خاطف عادة ما يكون الذهبي، هنا الفتحة مختلفة، فتحة تقع أسفل الصدر، تبرز الجزء السفلي من الصدر وليس العلوي، الفتحة مغطاة

بقماش له لون الجلد وفوقه شبكة شفافة لإيهام الناظرين.

العبقرية هنا في حمالة الصدر، حمالة صدر خفيفة، محشوة في موقع الثدي المصاب، مع بروز خفيف فيها لإعطاء إحساس الحلمة المنتصبة، وهو ما سيظهر في الجلباب والذي سيكون مثار حديث الناس وصرعة في عالم جلابيب الرقص، سيتوهمون أنك لا ترتدين حمالة صدر من الأساس، سيتحدثون عن صدرك أكثر من رقصك نفسه، بعد سنوات سيصنعون لي تمثالا، لا سيصنعون جائزة باسمي بسبب هذه البدلة.

(٤)

يقولون إن «بلال» حين كان يصيبه الكابوس المعتاد يبذل قصارى جهده لكي يهرب من مطاردته له، يصنع لنفسه كوبا من الشاي، ويدير الراديو الموجود بجهازه المحمول، المضبوط بالفعل على إذاعة الأغاني، يعلن المذيع عن عدة أغنيات متتالية لمحمد رشدي، يستشعر بحالة من الرضا تجعله يضع كوب الشاي جانبا، ويرتدي جلباب الرقص، وسط نحيب الكورال خلف رشدي وهم ينادون «عدوية»، ذلك الشجن الموجود في نداءاتهم على الحبيب الغائب، والذي يتحول دون مبرر إلى إيقاع راقص لاهث وهم - أي نفس الكورال الناحب - يشعرون بمرح أن «المنجة طابت ع السجر»، حينها يبدأ «بلي» في التمايل.

اسقيني يا شابة وناوليني حبة ميّه

يقولون إن طفلي «بلال» كانا يجلسان في الحافلة الخاصة بالمعهد الأزهري الخاص بهما متجاورين، يتضاحكان ثم يقترح أكبرهما أن يتسابقا فيما حفظاه

من المقرئ اليوم، في حماسة يتبعه توأمه، يضم ذراعيه إلى صدره متعاكسين، ويشرعان في قراءة قصار السور وهما يتمايلان بجذعهما إلى الأمام والخلف، تزداد حماستهما فتزداد حركة جذعيهما ذهابا وإيابا، ويعلو صوتهما تدريجيا.

اسم النبي حارسك اسمك إيه ردي عليا

يقولون إن حركات» بلي» تنفض عن جسده الراقص عذابات الكوابيس المتكررة، والحيرة المترجرة في كيانه، الخشية من أن يضطر للاعتراف لأناس لا يعنونه كثيرا بتصالحه مع نفسه كراقص، ملقيا بالقناع الذي يضعه أسفل أنفه إلى الأبد، أو أن يضطر إلى التخلي عن تلك الغواية التي يتقنها بتمايله وجلبابه وموسيقاه، واضعا قناعا لم يعد يرغبه أو يستشعر مستقبلا فيه على الإطلاق.

اوعوا تحملوا المراكب.. والله يا ناس ما راكب

يقولون إن الحافلة كانت تتمايل بعد محاولة فاشلة في تخطي إحدى السيارات في الطريق المشترك ذهابا وإيابا المجاور للترعة، تصطدم الحافلة بسيارة نقل، فتتهاوى، تنقلب مرتين أو ثلاثا، يتمايل جسمي طفلي بلال لا إراديا، يصطدم الأصغر بزجاج النافذة المجاورة له، بينما ينقلب الأكبر ويتداخل جسده مع أجساد بقية أقرانه لدرجة تستحيل الفصل بين رجل ذلك ويد الآخر، قبل أن تستقر الحافلة في النهاية داخل مياه الترعة مباشرة.

ولا حاطط رجلي في الميّة.. إلا ومعايا عدوية

عدوياااااااا

ما قاله زايد الحسيني لها

يا فنانة يا فنانة يا فنانة يا ست الكل.. والله قفزت فرحا حين أخبرني الدهشوري أن أكلمك لأنفرد بخبر عودتك للرقص، مكذبة كل تلك الشائعات التي طالتك طوال الأربعة شهور الماضية، سأقرأ لك ما كتبته قبل النشر وأتوقع أنه سيعجبك لدرجة أنك لن تغيري حرفا، العنوان «لونا تحارب الشائعات بحفل ضخم في القاهرة.. وقراءة سيناريوهات أفلام».. كتب زايد الحسيني العبد لله.. «في سرية تامة وبعد غياب عدة أشهر عن الوسط تعود الفنانة الاستعراضية المثيرة للجدل والشائعات (لونا) إلى إحياء حفل ضخم في أحد الفنادق الكبرى»، عذرا يا فنانة لن أستطيع ذكر اسمه حتى لا يعتبره رئيس التحرير إعلانا لكنني سأضع اسم الفندق حين أشارك الخبر عبر صفحتي على موقع «فيس بوك»، نكمل «لتضع حدا للشائعات التي طالتها بالمرض أو إجراء عمليات مؤخرا في القاهرة أو خارجها»، بالمناسبة يا فنانة.. سأقترح عليك أمرا.. أنت تعلمين أنني عشرة

سنوات، وأكلت في بيتك عيشا وملحا، أعرف أنك أجريت العملية إياها، وكنت أقترح أن تصرحي لجمهورك بها، أتدرين الجمهور يتعاطف مع الأم حتى وإن تاجرتِ به، لهذا السبب يحب الناس عبد الحليم حافظ أكثر من فريد الأطرش، وربما أكثر من محمد فوزي الذي مات مريضا، لأن فوزي أغلق على مرضه ولم يقم بتصوير نفسه في المستشفى وسط أدويته وتحاليله، اليوم حين تمرض ممثلة درجة ثالثة تضع صورتها على «فيس بوك» وتكتب تعليقا «ادعوا لي»، أنت أستاذة في التجارة ويمكنك أن تعوضي ذلك الأمر نجاحا مذهلا.

أعلم أن صمتك يعني أن أخرس وأكمل الخبر كما تريدينه، هل لي أن أقترح عليك أمرا آخر، ماذا لو كتبت قصتك التي ترويها لي عن «بلال» الذي تعشقين رقصه في «شرم الشيخ» وأنه يلهمك، وممكن أن آخذ منه تصريحا عن سعادته بذلك ، لكنني أحتاج أن تساعديني لأنني لم أجد أي وسيلة للاتصال به مع مندوبنا في شرم الشيخ.

حسنا.. سأخرس أيضا ولنكمل «وكانت الفنانة الاستعراضية لونا قد حصلت على إجازة استجمام مؤخرا بعد نشاطها الملحوظ، قرأت خلالها عدة سيناريوهات عرضت عليها، كما علمت مصادرنا أنها قضت إجازة الاستجمام في شرم الشيخ».. انتبهي للجزء القادم يا فنانة «..ورفضت السفر إلى سواحل كانكون دعما للسياحة المصرية في تلك المرحلة الفارقة».

(٥)

يقولون إن الرنين المفاجئ للمحمول الصيني الخاص بـ «بلي» يقطع صوت الراديو، يضجر «بلي» من فصله عن تلك التجليات في عوالم الرشدي، يتجه نحو محموله، يرى اسم والده على الشاشة، يحاول الرد لكن عطلا مؤقتا يمنع محموله من الاستجابة، دائما ما يحدث حين يدير الراديو ويأتيه اتصال في الوقت نفسه، يغلق المحمول فلا يستجيب، فيخرج بطاريته ثم يعيدها إلى مكانها، وقبل أن يبدأ في الاتصال بوالده يعاجله الأخير بمكالمته، يمسح «بلي» كفيه المتعرقين في جلبابه ويرد، فيخبره الوالد بوفاة حفيديه غرقا في الترعة إثر حادث الحافلة.

يقولون إن «بلال» قابل الخبر بصمت طويل، وأن في عينيه كانت تتحرك دمعة، بينما يكمل الوالد تقريره حول إجراءات تسلم الجثتين من المشرحة والدفن، ويختتم مكالمته بالتعازي والدعاء بالصبر والسلوان، لم يسمع «بلال» شيئا من ذلك، توقفت مشاعره عند خبر الغرق والوفاة،

واستسلم بعدها لتلك الحقيقة المفاجئة، انقطع الخيط الوحيد الذي يربطه بتلك الأرض الضيقة الطاردة، وتلك العائلة التي تحمل صلفا في مشاعرها، تخيل «بلال» كما اعتاد دائما أن رؤية اسم والده على محموله لن تحمل كابوسا حقيقيا، لأنه انتظر كثيرا أن يأتيه الخبر عن ذلك الوالد، لم يتوقع أن يحلق ولديه في رحاب أمهما إلى فضاء السماء الواسع، تحرك بسرعة فخلع جلبابه وارتدى ملابسه استعدادا للرحيل، أخرج محفظته ونظر إلى صورة ولديه وقبلهما، أغلق الباب خلفه ونزل إلى الشارع، نظر للسماء وحاول أن ينسج من السحب أشكالا أشبه بوجهيهما ففشل، ثم توقف للحظة، زالت الصدمة قليلا حين صرخ رشدي من راديو الورشة التي تقبع في مدخل العمارة «اوعوا تحلوا المراكب.. والله يا ناس ما راكب.. ولا حاطط رجلي في الميه إلا ومعايا عدوية»، وبدأ في إدراك أن الخيط الأخير الذي كان يبقيه لأسبوعين في انتظار أن تتطرح صحارى شاربه الحليق، والهاجس من اضطراره لأن يعود ليدفن والده قد رحل، رحل برحيل الطفلين، لم يعد هناك ما يجبره على التخفي تحت شارب، خالعا جلبابا وغوايته، لم يعد هناك شيء في تلك الأرض البعيدة، لم يعد هناك سوى الوالد والأعمام والأخوال الذين طالما تحملهم بسبب ولديه.

يقولون إن «بلال» اقترب أكثر من الورشة ونظر إلى مرآة تحمل في جزئها العلوي صورة للمسيح، نظر إلى وجهه، إلى شاربه الحليق، وإلى عينيه المحمرتين بفعل الأرق والدموع، مسح خطا سائلا من أنفه بكفه كان قد لاحظه للتو، ثم صعد السلم مرة أخرى، وحمل جلبابه والإيشارب المذهب في كيس بلاستكي، واتجه إلى خليج نعمة حيث ينتظر الجميع فقرته ليلا.

ما قاله محسن سليمان لها

المثل يقول «اللي متعرفش ترقص تقول على الأرض عوجة» وأنت لا تدركين أين تطأ قدماك، تتطوحين.. لولا حرصي على عدم إدخال مخدرات معك الغرفة ووجودي معك أثناء ارتدائك لبدلة الرقص، لقلت إنك تتطوحين بفعل المخدر الذي أخبرني البعض أنك أدمنتيه مؤخرا، وحذرني صديق في شرطة السياحة من الأمر.

الجزء الأول من الحفلة سقطت مرتين، ضحك الناس كثيرا، وأخرج أغلبهم المحمول لتصويرك، الزمن أصبح غير الزمن يا لونا، الاسم الذي يصنعه تعب السنوات يمحوه خطأ صغير، والوجع كل الوجع أن يمحوك أحد من التاريخ، إن كان لك تاريخ متوج في الرقص يصل لعقد كامل، فلهذا الفندق عمر يتجاوز المائة عام ولن أسمح أن يكون لعبة في يدك، لقد أطفأت المسرح مبكرا معلنا انتهاء الوصلة الأولى حتى لا نكون مدعاة للسخرية والعبث، لدينا عقود، ونحفظ حقوقنا بشروط جزائية، يمكننا أن

نتنازل عنها، إذا خرجتِ بعد الفاصل لتعتذري للجمهور متعللة بتوعكك وأنك لست على ما يرام، وبالطبع ستوجهين شكرا للفندق وإدارته، والمثل يقول: «اللي ما بتطلوش بإيديك طوله بلسانك».

الفندق لا يتحمل فشلك يا «لونا»، لن يتحمل ضياعك، لن يتحمل مخاوفك من فلاشات الناس، وإحساسك بأن أعينهم مسلطة على صدرك للتأكد من إن كان طبيعيا أم لا، لا تنظري لي هكذا، أنت تعلمين أن خالد الوكيل يسهر يوميا في البار الموجود بالطابق العلوي مع أقرانه من رجال الأعمال والمجتمع، أنت تعلمين أنه لا يكف عن الحديث، وأصدقاءه لا يكفون عن نقل ما يسمعونه، وعمال البار لا يكفون عن نقل ما تتناقله جلسات النميمة، خاصة إن كانت تخص راقصة ورجل أعمال افترقا بعد شائعات مرض، سأتركك في غرفتك خمس دقائق تستجمعين قواك وتعاودين النزول إلى الصالة لتفعلي ما اتفقنا عليه.

(٥) / أو ما قاله بلي لها

طبيعي ألا أحضر لأشاهد عرضك الأخير والأثير، فأنت لم تستدعيني لمثل هذا الحدث العظيم، لم تطلبي حضوري حتى وإن كنت مختبئا وسط الإضاءات الصاخبة للكاميرات التي ترصدك وتتفحصك، وتجبرك على التعثر آلاف المرات، لم تناديني لأتجاوز الصورة المشوشة التي تتراءى في مرآتك والتي تختفي خلف غمامات الدموع الدافئة على وجهك، لم تفكري في إخراجي من بين جلبابك الأبيض الملهم الذي رأيتيه على جسدي النحيل سابقا، لم تجلبيني على كما تعودتِ، كما رافقتك خلال رحلتك الشهور الماضية.

«ابحثي عن أشخاص تجدين في ثناياهم إلهاما لك ودافعا على تجاوز المحن» - حسين الميناوي

تتحسسين الجلباب الأبيض المعلق على الشماعة وكأنه يحمل الكثير من الشوك في داخله، احسمي قرارك، إما أن تتركيه على حاله لتخرجي للجمهور كما أمرك صاحب الفندق لتعلني نهايتك، تتصالحين مع تلك

النهاية التي وصلت إليها، تصاحبين المرض الذي ألم بك، وتتعايشين مع البقية من صدرك، أو أن تضعيه فوق جسدك كدرع معركتك الأخيرة للبقاء كما تعودتِ، ليتعايش المرض معك كما أنت دون مواربة.. لتطلقي الغواية التي تسكن في روحينا.

« لولا حرصي على عدم إدخال مخدرات معك الغرفة ووجودي معك أثناء ارتدائك لبدلة الرقص، لقلت إنك تتطوحين بفعل المخدر الذي أخبرني البعض أنك أدمنتيه مؤخرا» ـ محسن سليمان

ذلك المزيج الأبيض المميز الذي تخبئين منه بعضا في صدرك، لتختبئي وراءه، إنه كل ما أرجوه، تماما مثلما كنتِ تفعلين كلما اشتد عليك الألم، تماما مثلما فعل في مرته الأولى لك، تماما مثلما جعلك تركلين الأرض التي تعيقك عن الرقص لتتمايلي في غرفتك بشرم الشيخ، «إشي خيال» فعلا كما يسمونه.. ذلك المسحوق المطحون الذي تضعينه الآن على التسريحة التي تجلسين أمامها وتميلين برأسك لتنشقيه، حتى تطلقي لنا العنان معا.

«فالمخدر خطر على عقلك.. لا أريد أن أصدمك بأن موعدنا كان الثلاثاء واليوم هو الإثنين، حين رآك ممرضي كاد أن يخبرك ثم تراجع حين وجدك منتشية.. أنت تفقدين الإحساس بالزمان والمكان.» ـ أمجد سركيس

انهضي.. هلا ارتديتِ جلبابك الذي صممه أبو المحاسن لتذهلي الحضور، سأساعدك، هكذا تماما يكون الصدر مضبوطا، سترقصين كما رأيتني أفعل، وهل فعلت ما فعلت إلا لأجلك فقط، ستتذكرين كل تلك الحركات التي أديتها أمامك مرارا وتكرارا، ستتركين كل ما وراءك وراءك، وستتقدمين خطوة للأمام فيها لتكتسبي مساحة من الأرض أقرب للجمهور.. لتتجاوزي عن الحقيقة التي سردوها لك جميعا، لتبقي داخل ذلك العالم الذي تجاوزت فيه محني المصنوعة من باطن عقلك بحركات شبه

دائرية أؤديها في الكافيه الذي لم يزره أحد غيرك.

« لقد زرت الكافيه الذي وصفتيه لي حتى أشاهد رقصه أو جلبابه لكنني لم أجد أحدا هناك يؤدي فقرة رقص، ربما كانت إجازته» ـ أبو المكارم

تماما مثلما تدربنا، تطلبين من مساعدك أن تدار أغنية «عدوية» وأن يمنع مهندس الإضاءة من إظلام المسرح.. تتحركين في ثقة متناهية، تفكرين في الاعتذار مثلما طلب منك «محسن»، تشاهدينني بين الحضور أقف بجلباب مماثل لك، أنتظر منك عمل «التوينكة» مع نهاية مقطع الموال، حينها فقط سيصفق الجمهور وتكتسبين ثقة توارت عنك لشهور طويلة وراء إحساس من الوجع، أتدرين ما المؤلم في الوجع؟ هو التوقف عنده بينما تتحرك الحياة من حولنا دون أن ندري، ستتحركين مع الحياة بنفس إيقاعها وستراقصينها، وسينفجر المكان تصفيقا مع جملة «والله صورتك دي تنفع تزين الجرانين» لأنها ستلمسك فعليا، حينها فقط ستبكين، بكاء مفرح غامض.. ستنحنين للجمهور المنتشي برقصك، وانتشائك.

«أمر أخير.. لم أسمع عن راقص في شرم يدعى «بيلي» من قبل، لا أدري سبب إصرارك على جمع معلومات عنه، حتى إنني سألت ريتشارد ولم يعرفه..» ـ الدهشوري

على الجانب الآخر من الهاتف

٠٠٩٦٣

تنظر هند إلى الرسالة الموجودة أمامها على شاشة الحاسوب مرة أخرى، تبحث عن محمولها على السرير الذي تجلس عليه، تدفع دمية قطنية تضعها على السرير عليها تجده، تفكر أن تخرج لتطلب من والدتها أن تتصل بها لكنها لا تريد أن تفتح باب غرفتها، تتحاشى الحوار مع والديها الجالسين في الخارج، تصدم يدها قنينة طلاء أظافر تحت الوسادة كانت تبحث عنها منذ فترة، تفتحها وتمسك فرشاتها بيمينها لتدهن جزءا من ظفر إبهامها، اللون القرمزي الساحر، تكمل بقية الظفر وتغلق القنينة، تخرج هواء ساخنا من فمها تجاه إبهامها، ثم تعاود البحث عن الهاتف، أخيرا تجده، تنظر إلى الحاسوب مرة أخرى، تتأكد أنها تطلب أرقاما صحيحة، تنظر إلى أسماء المدن وأكوادها، استبعدت القنيطرة وأدلب واللاذقية ودير الزور، تحصر اختياراتها بين دمشق وحلب وطرطوس، اختارت حلب لسبب لا تدريه، تتأكد من الكود «٢١»، ثم فكرت في سبعة أرقام عشوائية، تختار أرقام هاتف «مهاب» لسبب لا تدريه، ربما لأنها أرقام الهاتف الوحيدة التي حفظتها على مدار حياتها بخلاف رقمها الشخصي، ورغم دخولها فيها لا يقل عن خمس

تجارب عاطفية بعده خلال السنوات الثمانية الأخيرة، إلا أنها لم تستطع أن تحفظ أرقام أي منهم، تعلل هند ذلك بأن عقلها كان مايزال يافعا قادرا على حفظ أرقام الهواتف قبل أن تعمل في مجال التأمين فتصبح كل حياتها مزيجا بين الأرقام والنسب المئوية.

انتهت من وضع الرقم وراجعت الرسالة مرة أخرى حالما تفكر فيما ستقوله للرجل المجهول الذي قد يرد على هاتفها، لم تتوصل إلى بادئة لحديثها المفروض فقرأت الرسالة مرة ثالثة بصوت مرتفع أملا في أن تلهمها..

«ادعم أهل سوريا بمكالمة واحدة على الأقل، مفتاح سوريا: ٠٠٩٦٣ ثم أدخل أي مفتاح من مفاتيح المدن التالية ثم أدخل سبعة أرقام عشوائيا».

حتى اليوم تجد هند تلك الصعوبة في إيجاد بادئة حديث مع شخص لا تعرفه أو تقطعت بينهما السبل، تقرر أخيرا أن تضغط زر الاتصال، تنتظر ثوانٍ قبل أن يبدأ جرس طويل ممتد في الرنين، تفكر هند في إغلاق الهاتف وتهمل نفسها حتى انتهاء جرس آخر، حين تجيبها سيدة عجوز على الجانب الآخر من الهاتف.

- «مرحبتين».

Ringing tone

«علم قلبي الغرام.. كلمني أحلى الكلام.. عيش معايا في الأحلام.. يا حبيبي حبني»

لم تستطع «مريم» أن تداري تعجبها من النغمة الموسيقية التي تضعها «هند» على محمولها، تجيب «هند» فتباغتها «مريم»:

- «ياه يا عبد الصمد.. علم قلبي!!»

- «وما المشكلة فيها يا مريم؟!»

- «قديمة جدا.. أغنية عتيقة لعمرو دياب».

- «عتيقة.. لماذا تشعريني أنني أسمع أغنيات لمحمد فوزي؟»

- «قديمة فعلا.. عمرو أنتج بعدها ٧ أو ٨ ألبومات».

- «لا تبالغي ليس لهذه الدرجة..»

- «هذه الأغنية عمرها ١٠ سنوات يا حبيبتي»

- «١٠ سنوات.. مستحيل.. لقد كانت تلك الأغنية هي المفضلة لي أنا و...»

الألفة تقتل الإحساس بالزمن، تألف أغنية «عمرو دياب»، تراها حديثة، تذكرها ربما بصيف مبهج أو أشخاص مميزين، فيمر الزمن دون أن يعطي إشارة لبقية حواسك التي لا تزال ترى في تلك الأغنية جدة وطزاجة أن الزمن قد مر عليها هي أيضا، وأن السنوات التي لم تغير صورة «عمرو دياب» نفسه غيرتك، وجعلت شعيرات بيضاء تحتل مكانها وسط بقية شعرك لتدرك أنك قد تجاوزت الثلاثين، يحبس عقلك صورة نمطية لعمرو دياب بصفته مطربا شابا حتى تعجز عن إدراك أن السنوات خطت خطوطها فيه، تستخدم المقارنة للتدليل على أن الزمن لم يمر بتلك السرعة، مستنكرا أن تكون أغنية «علم قلبي» قديمة، أغنية «ميال» هي التي يمكن أن نسميها بالقديمة.

ظل هاجس معرفة عمر الألبوم مسيطرا على «هند»، رفض عقلها الاعتراف بملحوظة مريم رغم أنها بذلت مجهودا لتجد الأغنية على مكتبة الرنات الموسيقية حين قررت وضعها على محمولها، تعود إلى المنزل بعد أن

تنهي عملها، تعلم أنها تضع أغلفة الألبومات في كرتونة أسفل سريرها، تغلق باب غرفتها حتى لا تراها والدتها وهي ترفع المرتبة، تخرج الكرتونة، تبدأ في البحث، ألبومات كثر اشترتها، صور قديمة منذ أن كانت الكاميرات الفوتوغرافية تحتاج إلى أفلام، محمول قديم، صورة لخطيبها السابق، تدقق فيها وتدرك أنها كانت أنحف قليلا، تنهض من فوق السرير، وتتجه إلى ميزان إلكتروني تضعه أسفل مكتبها، تقف عليه، تنظر إلى المرآة أمامها وإلى المؤشر أسفل منها وتدرك أنها لو استطاعت أن تقل ٤ كيلوجرامات فقط سيصبح جسمها مثاليا، تستدير بجسدها أمام المرآة، تضم الملابس حول خصرها وتستدير ثانية.

تعود إلى صندوقها، تجد الألبوم أخيرا، تفتحه تتأمل الأغنيات، كان أفضل ألبوماتها مع «مهاب»، هو من أحضره لها، أحبا أغنية الألبوم الرئيسية «أنا عايش»، وتفاجآ باللون الغنائي في «حبيبي يا عمري»، وأعجبها اسم «كنزي» لدرجة أنها قررا أن يطلقاه على طفلتها الأولى، لكن تبقى أغنية «علم قلبي» هي درة التاج بالنسبة لها.

أمام حاسبوها تبحث «هند» عن تاريخ إنتاج الألبوم الذي لم تجد أي معلومة على غلافه، يصدمها أن عمر الألبوم ١١ عاما كاملا، وأن «كنزي» المزعومة كانت لتصبح في العاشرة من عمرها الآن، تنساب دمعة خفيفة على وجنتها، تظل لدقائق شاردة في لا شيء، مجرد مساحة ضبابية أمامها، تنهض متثاقلة وتغلق النور في غرفتها وتتجه إلى السرير لتنام.. أو على الأقل لتحاول.

أصبح رأسه حليقا، زاده ذلك قليلا من النضج أو الرجولة، أو ربما فعل ذلك لأن الشعر الخفيف بدأ في الانحسار عن جبهته، لم تستطع «هند» أن تحدد ذلك حين نظرت إلى صورته بعد تلك السنوات عبر موقع التواصل الاجتماعي «فيس بوك»، كان يضع نظاما أمنيا على حسابه يمنع غير الأصدقاء من معرفة معلومات عنه أو رؤية أي صور إضافية له إلا بإضافته كصديق، استغرقها إيجاده اليوم بأكمله، «مهاب الوكيل».. كان صعبا إيجاد طريقة كتابته للاسم بالإنجليزية، لم يكن بينهما أي أصدقاء مشتركين رغم أنهما كانا زميلين في الجامعة، يسبقها بعامين، لكنها تذكر الآن أنها من انقطعت عن الجميع وانزوت، كانت تشعر بغطرسة ما تجعلها تبتعد عن الجميع حتى انفض الجميع من حولها.

تقاطع شرودها «كيلا»، تستأذنها بتعالٍ في أن تجلس معها على نفس الطاولة في كافتيريا البنك الذي يعملان فيه إذ لا تجد مكانا آخر، تطفأ «هند» سيجارة كانت أشعلتها وتقرر إغلاق «فيس بوك» على محمولها، فهي لن تغامر بأن تتصفح حساب رجل غريب في مكتبها حفاظا على صورتها وسط البقية، تلمح عيناها المعلومة الوحيدة التي يضعها «مهاب» في حسابه قبل أن تغلقه، لقد أصبح مديرا إداريا لأحد أفرع شركة استثمارات عقارية، الشركة تتعامل بشكل مباشر مع البنك، وحسابات كل موظفيها مربوطة بالبنك، تتبادل مع كيلا نظرات خفية، كلتاهما تعرف أن الأخرى ترمقها دون أن يبدو عليها ذلك، وكلتاهما تعرف أن الأخرى تعرف ذلك وتتظاهر بعكسه، تضع «كيلا» قدما فوق الأخرى بطريقة رجالية تناسب شخصيتها وملابسها وشعرها القصير، لا توجد مشكلة حقيقية بين الفتاتين لكنهما لسبب لا يفهمانه إلى الآن لا تطيقان بعضهما البعض، طبيعة شخصية «كيلا» لا تنسجم من فتاة أخرى تقوم بمشاركة أغنيات حماقي على صفحتها في

موقع فيس بوك، لا تنجرف تحت أي ما هو شائع، لا تغير صورتها إلى طفل فلسطيني إذا ما تكرر القصف على غزة، هي أساسا تشك في مقدار ما تعرفه هند عن غزة حتى تتعاطف، لا تعنيها ميتة ستيف جوبز حتى وإن حملت محمولا من إنتاج شركته، لا تشعر برحابة في أن تشارك الآخرين حالتها ٧ مرات يوميا مثل هند: «أشعر بالقلق حيال أمر لا أعرفه»، «ضقت ذرعا من الحر والمواصلات»، «ما الذي سيضر الرجل المصري إذا ارتبط بفتاة مدخنة»، «وقعت في غرام شيكولاتة باشونيل التي جاءتني من عزيزتي جوجي هذا الصباح.. شكرا يا جوجي.. ربنا يخليكي ليا»، «أوحشني أن أرتدي فستانا.. واليوم خطوبة مرو سمحت لي بذلك»، «شكرا يا جوجي مرة ثانية.. لا أدري لماذا أكتب ما أكتبه لكنني أحسست بذلك».

ورغم ذلك تحاول «كيلا» أن تصطنع أي حوار مع زميلتها التي سمحت لها بمشاركة الطاولة كنمط اجتماعي مصطنع يصنعه الزحام، تسألها سؤالا لا تنتظر إجابته «وما لأخبار؟»، تتصنع «هند» الاهتمام بالسؤال وتخبرها أنها انشغلت خلال الدقائق الفائتة في أحد مراحل لعبة «كاندي كراش»، ثم تقول معلومة تقريرية في صيغة سؤال:

- «شركة الملاح للاستثمارات العقارية أحد عملائنا وحسابات موظفيها تابعة لنا».

تهز كيلا رأسها خاصة وأنها المدير المسؤول عن حسابات تلك الشركة لدى البنك، وتوقن أن هند على علم بالمعلومة، فتكمل هند بارتباك سؤالها:

- «بصفتك مسؤول عن حسابات الشركة في البنك، هل من الممكن أن نعرف حساب أحد الموظفين فيها؟»

- «مستحيل يا هند».

- «لا يشترط أن يكون بالضبط، لكن يمكن أن تخبرنا معلومة كما

نتعامل دائما كبنك وإدارة تأمين، حسابه أكبر من شريحة كذا، دخله السنوي في شريحة كذا».

- «إن كنا سنتعامل كبنك وشركة تأمين تابعة لها.. إذن أرسلي لي طلبا عبر البريد الإلكتروني يضم اسم العميل المراد السؤال عنه وسبب احتياجك له كشركة تأمين».

- «الأمر لا يستدعي كل ذلك».

- «إنها أساسيات العمل».

- «إممم».

يدوي الصمت للحظات قبل أن تبادر «كيلا» بسؤال مباشر وقاطع يتلاءم مع طريقتها: «وهل للأمر علاقة بالتأمين فعلا؟»، ترد هند بثقة مصطنعة: «للصراحة يا كيلا.. الأمر متعلق بصديقة.. ولن أستطيع أن أخبرك أكثر من ذلك.. هل ستساعدينني؟!»

Slide to unblock

- «ولماذا لا تعتقدين أنه تزوج؟»

تقولها «مريم» وهي تتفحص أحد الفساتين الزاهية، تخرجه من موقعه وتسأل «هند» سؤالا آخر «ايه رأيك؟»، تخبرها «هند» أنه جميل، تسأل «مريم» البائع عن قياسها، ويتجهان إلى غرفة القياس، تناول «مريم» حقيبتها إلى «هند»، وتعاود السؤال مرة أخرى الذي لم تنسه «هند» من الأساس:

- «ولماذا لا تعتقدين أنه تزوج؟»
- «صورته على فيس بوك، لم تكن في إصبعه دبلة».
- «ليس شرطا.. وأنت تعلمين ذلك، طاهر تزوجني وطلقني ولم يضع في إصبعه دبلة واحدة قط».
- «لا أعرف.. لكنني أعتقد أنه لو تزوج لوضع صورة مع زوجته، أنت لا تعرفين مهاب، لقد كان يميل لإظهار علاقتنا».
- «بخلاف أنك أول مرة تحكين لي عن مهاب رغم معرفتي لك منذ سنوات.. إلا أنني أستطيع أيضا أن أقول إنك لا تعرفينه يا هند، أنت تتحدثين عن طباع رأيتها فيه آخر مرة منذ ١١ عاما، الناس...»

تخرج من غرفة القياس وتنظر إلى هند التي تبدأ في إلقاء نظرة على الفستان بينما تكمل مريم من نقطة توقفها بالضبط كأن شيئا لم يحدث:

- «..تتغير، أنت نفسك تغيرت».

ولأنها تغيرت شعرت بذلك الحنين لشخص هجرته بسبب طلبات عائلتها وقتها، واهتمامها هي نفسها بتلك الطلبات وطبيعة الوجاهة الاجتماعية، التي جعلت مجتمعها بمرور السنوات ينحصر فيها وفي والدين التفا حول التلفزيون، الحقيقة إنه ليس حنينا بالمعنى المفهوم، إنه نوع من الفضول، فضول لمعرفة ما الذي حدث له طوال تلك السنوات، وكيف لم يتزوج بها، فضول يذيبه متعة الحكي أثناء سيرهما سويا أو التسامر كما كان يفعلان في الطريق من كليتهما إلى موقف الباصات المكيفة حيث يتركها ترحل، تحاول أن تتذكر طريقة سرده، طرفته، صوت ضحكته المتقطعة عالية الصوت، تحاول أن تفكر بطريقة أو بأخرى في فرص تلاقيهما مرة أخرى، فرص وصل الحنين والمحبة من نقطة انتهائها قبل ١١ عاما.

تفكر فيما تخفيه عن صديقتها، أن تحادثه على الهاتف، هي تعمل في شركة تأمين تعرض على العملاء عضويات وبرامج اشتراك، الأمر لن يضيرها شيئا، ستحادثه دون أن تحتاج إلى معلومات «كيلا» عنه، هو مدير الآن ولابد أن مشكلاته المادية تلاشت، هو لم يكن فقيرا، لكنها كانت طموحة أكثر من اللازم، وبمرور الوقت تضاءلت أحلامها فأصبحت مضطرة للاستغناء، ستحدثه بصفتها موظفة في شركة التأمين لمرة وحيدة تستنبط منها ما تحاول أن تعرفه عنه.

Call failure!

«ما نسيت ويا ريتني نسيت.. ما نسيت ويا ريتني نسيت»

بعد دورتها الثالثة في مضمار النادي أملا في إنقاص الكيلوات الأربعة جلست «هند»، أخرجت محمولها محاولة أن تطلب رقمه، تنظر إلى شاشة المحمول السوداء فتلمح شعرة منسابة بطريقة خاطئة، تدير الكاميرا الأمامية وتستخدمها كمرآة وتضبط شعرها، تعتقد أن الخصلات الأمامية تلفت منذ أن كانت محجبة قبل خمس سنوات، تغمس أصابعها بين خصلات شعرها لتعطي مساحة للهواء لينساب بين شعرها، تحاول أن تركز وألا تتشتت عن الهدف الأساسي الذي تحاول أن تفعله منذ عدة أيام، تحاول أن تقنع نفسها أنها حين ستطلبه ستجد شخصا غريبا يرد عليها وأنه غيّر رقم محموله مثلما فعلت هي مرتين خلال السنوات السابقة.

تنطلق من كافتيريا النادي المحيطة بالمضمار أغنية «حنيت» لعمرو الدياب، تطرق السمع، لقد كانت تسمعها في دورتها الأخيرة في المضمار

لكنها غالبت حاسة السمع لديها وأوعزت الأمر إلى الألبوم الذي تحفظه عن ظهر قلب، تراهن نفسها أنها الأغنية الرابعة في الوجه الثاني من ألبومها المفضل، تحاول أن تطلبه لكنها تؤجل الأمر حتى تنتهي أغنيتها.

تتنفس ببطء وتطلب رقمه الذي تحفظه جيدا فيقفز إلى ذهنها ذكرى آخر مرة جربت فيها نفس الرقم منذ ٣ سنوات حين بدأت ثورات الربيع العربي، تتساءل بعد كل تلك التغيرات السياسية وفقدانها الإيمان بأن ما حدث ثورة، وتعاطفها مع بشار نفسه، ما الذي حدث لتلك السيدة التي كلمتها في تلك الليلة.

تذكرت «هند» تلك السيدة لأنها تكره القصص ذات النهايات المفتوحة، الأسوأ أنها تكره النهايات أكثر، تعتقد أن كل قصة حلوة لم تكتمل بعد، كل قصة لم تنته أنت تعيش في وسطها ولا تدري في أي نقطة أنت على شريطها الزمني، حين نكون في منتصف علاقتنا العاطفية لا ندرك أن انتهاءها هو انتهاء لتلك الحالة من السعادة والنشوة، يخطئ من يعتقد أن الزواج نهاية قصة حب، فهو فصل آخر في قصة لم تكتمل، النهايات دائما تعني فقدان الأمل في العودة بشريط الزمن إلى الوراء لإدراك أو تصحيح مسار الزمن، تنتهي قصص العمل بتركك له، وتنتهي قصص الصداقة بتركك لصديقك، وتنتهي الحياة بتركك لها، لذلك لا تعتبر «هند» علاقتها بالسيدة السورية التي تقبع على الجانب الآخر من الهاتف انتهت، كل ما تحاول أن تدركه هو تسريع الزمن لمعرفة ما سيحدث، تماما كأن تحاول أن تتلصص على الصفحة الأخيرة من رواية أو تتحرك بإيقاع الفيلم سريعا لتعرف ما سيحدث للبطل الذي هو في الحقيقة أنت.

- «مرحبتين».
- «....»

- «ألو... مرحبتين».
- «أنا.. أنا هند من مصر.. و..»
- «وماذا تريدين؟!»
- «أتصل بك لأدعمك في ثورتكم المباركة ضد النظام الغاشم.. لقد سبقناكم لذلك أريد أن أنقل لك بعض الدعم فقط لا غير».
- «أشكرك يا بنيتي.. ما اسمك؟
- «هند.. وأنت يا حاجة؟»
- «أم مروان.. ابني مروان فقد ساقه منذ ليلتين، اضطررنا لبترها في المستشفى، لا أريد أن أزعجك بقصتي.. شكرا».
- «لا.. لا أنا مهتمة أن أسمعك».
- «كانوا يضعون لافتة على باب المستشفى تقول (ممنوع الدخول بالأسلحة)، كل فصيل صار يحمل سلاحه حتى في المستشفيات.. ذهبنا بمروان بعد إصابته واضطر الدكتور لبتر قدمه، وهو الآن في حال أفضل، لكن القدم صنعت لنا مشكلة».
- «كيف؟»
- «ينوي هو وعروسه أن يرحلا من حلب إلى الأتارب، سيختفيان هناك ويقيمان عرسهما.. هل أنت عروس؟»
- «لا، لم يصادفني مروان إلى الآن».

تضحك السيدة، تضحك بعمق حتى يبح صوتها، فتسألها هند:

- «لم تخبريني كيف تعيق القدم المبتورة الزيجة؟ هل العروسة رفضت أن...»

- «لا، بالعكس.. هي تراه بطلا، مثلي تماما، كل ما هنالك أننا بحاجة إلى دفن الساق في الجبانة الشمالية، وهذا يحتاج إلى يوم في الذهاب قد يعطل الزيجة قليلا خاصة وأن السيارات لا تتوافر كثيرا للرحيل إلى الأتارب، ثم إن رحيل ثلاثتنا إلى الجبانة ثم إلى الأتارب مكلف، تكلفة ثلاثة أشخاص أصبحت مرهقة هذه الأيام».

- «هل أستطيع المساعدة بالمال؟»

- «أشكرك يا بنيتي، لكن حتى لو فعلتيها لن تصل».

- «وماذا تنوين أن تفعلي؟»

- «سأتدبر أمري وأقنع مروان أن أذهب بمفردي لدفن ساقه، وأن يضب هو أغراضه وأغراض عروسه لنسافر ثلاثتنا إلى الأتارب حالما أعود.. أعتقد أنني بذلك سأوفر جزءا من المال».

- «وستوفرين عليه ألم أن يرى ساقه وهي تدفن».

- «لقد شاهد أخاه يدفن الأسبوع الماضي، لا أعتقد أنه سيحتضن ساقه ويبكي مثلما فعل مع أخيه».

تدمع «هند» تماما مثلما حدث حين أنهت المكالمة، تدمع لأنها تذكرت المكالمة، تتساءل عما حدث مع «أم مروان»، تتساءل إن كان هناك من سكن دارهم، تتنهدش لأنها لا تدرك الآن إن كان الرقم الذي اتصلت به يخص منزل «أم مروان» أم محموها، يسيطرعليها الفضول الذي تحاول به تناسي هدفها المنشود في محادثة مهاب، تلج إلى الإنترنت وتتحقق من الرمز البريدي لسوريا، ومن ثم حلب، تطلب رقم «أم مروان» مرة أخرى، وتنتظر للحظات قبل أن يصدر صوت متقطع معناه أن هناك مشكلة في الوصول إلى الرقم المنشود.

تتصفح «هند» مجلة فنية قديمة موضوعة أمامها بينما تقوم فتاة بتقليم أظافر قدميها، تجلس بجوارها «مريم» التي تفعل الشيء ذاته وتنظر إليها مبدية اقتراحا:

- «هل فكرتِ في قصه؟»

- «لا، الرجال يعتقدون أن قص الشعر يعني الخروج من تجربة عاطفية فاشلة».

- «هذا إن كان ذلك الرجل يراك يوميا، أو أسبوعيا، أنتِ تتحدثين عن رجل لم يرك منذ ١٠ سنوات».

- «أود أن يراني كما رآني آخر مرة وكأن العمر لم يمر».

- «على العكس، اظهري له أنك نضجت، وأن السنوات العشر أكسبتك حكمة وأنوثة».

- «مريم، هل من الممكن أن أطلب طلبا بعيدا عن الموضوع؟»

- «خيرا؟»

تمد قدمها الثانية إلى فتاة الطلاء بعدما أنهت الأولى، وتضع المجلة جانبا، وتقول لـ «مريم»:

- «هلا كففتِ عن ترديد عبارة عشر سنوات.. عشر سنوات .. كل دقيقتين».

تضحك مريم وتقول: «موافقة، بشرط أن تحكي لي ما حدث في مكالمتكما».

- «لم يحدث أكثر مما أخبرتك إياه، كلمته وأنا في حمام الشركة، أقفلت الباب جيدا، ونظرت إلى المرآة ولم أدر إلا وأنا أطلب رقمه، لم يتغير صوته، لكنني لم أشأ أن أعرفه بنفسي جيدا، قدمت اسمي سريعا مثلما يفعل كل موظفي خدمة العملاء، غيرت اسم والدي واستعضت عنه باسم جدي، قلت له إنني أفكر في تقديم عرض تأميني له، وأبدئ تحمسا، ثم اتفقنا أن نتقابل في مكتبي الأحد المقبل خلال فترة راحته ليسمع العرض».

- «وهل تعرف عليك؟»

- «لا أعرف، أشك في ذلك، رغم أنني تعرفت عليه من أول (ألو).. نفس الصوت ونفس طريقة الكلام، الرجال ينسون سريعا».

- «.. أو ربما كان مشغولا، لقد كلمته خلال ساعات عمله».

- «لكن السؤال الذي دار في ذهني وظل مسيطرا علي..»

تصمت «هند» ولا تعيرها «مريم» اهتماما بالسؤال، إذا إنها تعلم جيدا أنها لو أبدت اهتماما به لما قالته «هند»، إلا أن الأخيرة ظلت صامتة، تعلم بحكم خبرتها أن المهتمين بعروض التأمين يفعلون ذلك لأن هناك مستقبلا أو شخصا يريدون أن يشعروا بالأمان تجاهه في حالة رحيلهم، هذا هو الدافع الوحيد للتعاقد مع شركات التأمين، الخوف من الخسارة، حتى أعتى الحملات الإعلانية لشركات التأمين التي تحمل قيما إيجابية عن أهمية الاشتراك في أنظمة التأمين من قبيل الاستثمار لم تحقق نجاحا يذكر، لأن الدافع الأكبر هو الخوف، الخوف من الفقد.

تلمح «مريم» ما تخفيه «هند» دون أن تصرح به وتسألها سؤالا استنكاريا تعلم أن إجابته هي النفي «هل سألتيه إن كان متزوجا أم لا؟»

يبدو عليها التوتر، لم تنجح في أن تخسر الكيلوات الأربعة، فقط بضع مئات الجرامات، لذلك شعرت بالإحباط وهي ترتدي ما اختارته ليوم الأحد تحديدا، سيزورها في الثالثة، فقط ساعة تفصلها عن رؤياه، تخبط قلمها الجاف في المكتب لتفتحه وتغلقه عن طريق رأس زنبركي في حركة عصبية لا إرادية، تنتبه «كيلا» إلى ما تفعله «هند» فتصدر صوت طقطقات من فمها معترضة على الإزعاج الذي تسببه تلك الحركة.

تنتبه هند، وتشير بيدها في اعتذار، تعلق «كيلا»: «اللي واخد عقلك»، تنظر «هند» إلى «كيلا» فيزداد شرودها، تخشى أن يلفت انتباه «كيلا» زيارة «مهاب» أو أن تلحظ شيئا إن دار بينهما نقاش حول العروض المقدمة، يعتريها قلق غامض من أن تتذكر ما دار بينهما، وأن تستغل الموقف لتقدم شكوى ضدها في استغلال بيانات العملاء لكالمتهم مباشرة، أو أن يبدو عليه حين يزورها معرفة مسبقة تلحظها «كيلا»، أو ألا تتمالك هي نفسها حين تراه.

تتعرق بفعل الوساوس رغم تكييف الهواء، تشعر بقطرة عرق ثقيلة فوق جفنها، تنهض إلى الحمام فتجده مشغولا، فتعود ثانية إلى مكانها، تفكر في أن تتصل لتعتذر له، تخشى أن تفعلها حيث تجلس.

الحمام مايزال مشغولا، وماذا لو كان متزوجا؟ ولماذا لا يرتدي خاتما للزواج؟ ما شكل عروسه؟ كان يحب السمروات؟ وهل عروس مروان سمراء؟ لا، في سوريا أغلبهم شقراوات؟ هل تمت الزيجة؟ وهل شعرت زوجته بإحباط في تلك الزيجة بعدما قضت عمرها وشبابها مع ذي قدم واحدة؟ هل لو تقدم لي مبتور القدم لتزوجته؟ لا، لن أستطيع فأنا أساسا أشعر بتورم في أصابعي بفعل الحذاء ذي الكعب الذي أرتديه، هل ارتدت

عروسه فستانا وحذاء في الفرح؟ لماذا أتذكر مروان وأمه الآن؟ لماذا لا أركز فيما أفعل؟ كيف وصلت إلى هنا؟ كيف أعود؟ كيف أعود؟ آه.. سيأتي مهاب في خلال عشرين دقيقة.. دائما ما كانت مواعيده دقيقة، عادة اكتسبها من والده على ما أتذكر.. هل سيعشق رؤيتي حين يراني؟ كيف سيراني؟ هل أتلف العرق المكياج فوق عينيّ؟ من الذي يجلس في الحمام كل هذا الوقت؟ هل يحتاج مروان إلى مساعدة زوجته لدخول الحمام؟ كيف يعيش ثلاثتهم؟ لماذا لم أحاول الاتصال بالسيدة طوال السنوات الثلاثة؟ سأتصل بها بعد مقابلتي لمهاب إذا ما وفقني الله.. الله.. ممكن أن أعاود الصلاة أيضا.. لقد كنت أكثر انتظاما حين كنت محجبة.. الحجاب أتلف خصل شعري الأمامية.. هل سيـ..

يرن هاتفها المحمول فتجد رقم «مهاب» الذي لم تكن سجلته بعد، تنظر إلى الساعة إنها الثالثة إلا ربعا، بالطبع سيسأل عن مكان لإبقاء سيارته، تنظر إلى «كيلا»، سبق السيف العزل، لن تلحظ شيئا، تضبط نفسها وتجيب، فتجده من الجانب الآخر وقد نادها باسم الشركة لأنه لا يذكر اسمها، تجيبه بالإيجاب، فيعتذر عن المجيء بسبب ظرف طارئ ويطلب منها تحديد موعد آخر لأنه مهتم بقضية التأمين، يرد في ذهنها أن تسأله إن كان متزوجا لكنها تجد طبيعة المكالمة والمكان غير مناسبين، تشكره على ذوقه واهتمامه وتغلق المكالمة.

•

Battery low

أمسك «مروان» يد زوجته فابتسمت، لم يجدا سيارة أجرة، فاضطرا للرحيل على متن سيارة نصف نقل مع أسرة أخرى، تنهض أمه التي كانت

تستند بظهرها على سور العلبة الخلفية للسيارة، تمسك بيد ابنها، وتستنهضه فينهض بصعوبة، وهي تنشد:

«جيبولوا العقال لو شعره غالي.. وغنوله بالعالي.. الله يرضى عليه..

جيبولوا العباية حلوة محلاية.. لا تنسوا المراية.. ترقص بين ايديه»

ثم تزغرد كما يفعل أهل الشام وكأنها تطلق إشارة للجالسين بأن يصنعوا إيقاع الدبكة بكفوفهم، وأن يتمايلوا بينما تبدأ هي في التمايل، تجذب العروس وتحتضن الاثنين وهي تدفن رأسها بينهما وترقص وتطرب الحاضرين:

«الحلاق الحلاق لا تجور عليه.. وهادا عريسنا وعين الله عليه»

تجذب فتاة من الحاضرين «هند» لتشاركهن الرقص، فتعتذر الأخيرة، تبتسم لأنها تذكرت «أم مروان»، تتساءل عما حدث لها هي وابنها، تأمل أن يكون انتقالها إلى الأتارب مبهجا كما تخيلته، تماما كحفلة الحناء التي تجلس فيها، حيث ترتدي صديقات العروس ملابس من المفترض أن تمثل جزر هاواي أو الكاريبي ويتراقصن على أغنية «بيني وبينك خطوة ونص»، كانت تلك الفقرة الثالثة بعد فقرة الجلاليب الفلاحي وأغنيات «آه ونص»، وفقرة الملابس السودانية وأغنيات «شوكولاتة»، لم تشارك «هند» في ارتداء الملابس، واكتفت بالتصفيق وتشجيع الفتيات اللاتي قرصن العروس في ركبتها واستعرضت كل منهن ما تستطيع أن تظهره أمام حموات مستقبليات يحاولن اقتناص عروس من تلك المناسبات، وفتاة ارتكنت إحدى زوايا منزل العروس تقوم برسم الحنة بالقرب من صدر إحدى الفتيات.

تجلس «مريم» بعد وصلة رقص منهكة، وتسأل «هند»: «لماذا لم ترقصي؟»

تقول «مريم» بصوت خفيض رغم أن الضوضاء المحيطة لا تسمح لأحد بسماع الآخر: «بطني وجعاني، I have my period».

قالتها هكذا ثم مالت لتسأل «هند» سؤالا استنكاريا «هي الجوازة التانية بيعملولها حنة؟»

- «هششش! سيسمعك أهل العروس، لا هذه ليست الزيجة الثانية بالمعنى الحرفي، الأولى كانت كتب فقط، لم تكن هناك دخلة، ثم أعتقد أنه نوع من كيد العريس القديم».

- «اممم».

- «الغريب ليس إقامة حنة للزيجة الثانية، الغريب أن تجد «ولا» عريسا ثانيا بهذا الكرش وتلك الأرداف».

تضحك «هند» فتكمل «مريم»: «الغريب إنها عاملة فستان mermaid، سيجعلها شبه السيدة الحامل، ومقتنعة أن الكعب سيحل المشكلة، أريد أن أقول لها إن الكرش يحتاج لما هو أكثر من ذلك».

- «لا أريد أن أسخر لأنني متضايقة، دوري الشهرية زادتني كيلوجراما وكأن الأمر يسير عكس ما أريد بالعند فيّ».

- «أهذا أجلت موعدك مع مهاب؟»

- «عندما كلمني لتحديد موعد آخر لتلقي العرض، انتهزت الفرصة، لم أستطع أن أسأله إن كان متزوجا، لكنني سألته لمن ينوي أن يقوم بالتأمين إذا ما أعجبه العرض، فقال أمه».

- «أمه!!»

لطالما أحب عائلته، ربما مات والده خلال تلك الأعوام وأراد أن يضمن مستقبلا لأمه في حالة غيابه، تعلم «هند» جيدا أن إجابته لا تعني بالضرورة أنه غير متزوج، ربما كان متزوجا ويضمن لزوجته عائدا في غيابه ويريد أن

يفعل نفس الأمر مع أمه، لكن إجابته تزيدها فرصة، أو على الأدق تبقي القصة مفتوحة، النهايات دائما صادمة ومخادعة، تتخيل أحيانا أن إجابته كانت «زوجتي»، فتدرك أن تلك الإجابة كانت لتكتب نهاية القصة، النهايات دائما حزينة هي تعلم ذلك، تتشبث فقط بمحاولة أنها ماتزال في منتصف قصة تحاول بعثها للحياة.

تسألها «مريم»: «ماذا بعد؟»

- «حددت موعدا معه بعد ١٠ أيام وتعلمت من أخطائي، عرضت عليه أن أزوره في مكتبه فقال إننا لن نستطيع التحدث واقترح أن نتقابل في كافية بالتجمع الخامس قريبا من عمله وقت راحته في الثانية ظهرا، فوافقت».

- «ولماذا بعد ١٠ أيام؟»

- «كنت بدأت أشعر بآلام دوري الشهرية فلم أرد أن أقابله خلال تلك الفترة، لن أكون في حالة مزاجية مناسبة، تعللت بأنني عندي أعمال أحتاج أن أنهيها خلال أسبوع، وتفهم».

- «ولم يتعرف عليك أو يذكر صوتك؟»

- «كل الرجال نفس الشخص».

- «والله أنا حاسة إنه بيتهبألك.. وأنه لا وجود لمهابك المزعوم».

- «يمكن!!»

«لو كل حبيب له حبيب وده حاله.. كان جاله كده وغناله»

تتراقص فتيات «هاواي» مع العروس على أغنية «انت مقولتش ليه من الأول» لعمرو الدياب، الأغنية الثالثة في الوجه الثاني من ألبومها المفضل،

تجذبها العروس، فتنهض، تتضارب الأفكار في ذهنها كما تتلاطم الأمواج، تقودها الأغنية للتفكير في «مهاب» ثم في حديث «مريم» عن توهمها ثم عروس «مروان» ثم «أم مروان» ثم في جدوى ما تفعل، ثم تحاول الخروج من دوامة التفكير الدائرية فتفشل، فتغطي فشلها بالرقص.

Truecaller

في الواحدة ظهرا.. تجلس في المقهى المتفق عليه قبل موعدها مع «مهاب» بساعة، تتوقع نتيجة مصادفاتها السابقة أن تنطق أغنية «علم قلبي» من المكان، لكن هذا لا يحدث، الجو حار بالخارج، تبقي عينيها على باب المقهى، يدفع الباب الخشبي أحد الزبائن ويترجل قليلا على الدرج إلى داخل ساحة المقهى، الإضاءة الداخلية لا تسمح لك بتحديد الوقت بالخارج، فالمكان معزول عن الخارج، وهي فرصة جيدة حتى لا يراها أحد معه فهي تعلم أنها دائما ما تكون محظوظة بمقابلة من لا تريد رؤيته في تلك المواقف، خاصة مع خشيتها أن يأتي محملا بمعلومة أنه متزوج، وربما متزوج ويعول، وخوفها من عدم سيطرتها على ردة فعلها.

لا تدري لماذا ذهبت مبكرة، لكنها قررت ألا تذهب إلى العمل، استغلت اليوم في الصحو متأخرة ثم التأنق بشكل يرضيها، تسألها النادلة عما تريده فتطلب منها مياها فقط، وتخبرها أنها تنتظر شخصا، لا تريد أن يبدو عليها أمام النادلة أنها وصلت باكرا وتناولت مشروبا، لا تريد أن تظهر لها أنها انتظرته، كل ما تخشاه أن يعتذر قبل ربع ساعة من موعدهما كما فعل سابقا فتصبح صورتها أمام النادلة سيئة خاصة وأنها أخبرتها أنها تنتظر أحدا.

يطلبها رقم غريب فتبحث عنه عبر برنامج Truecaller لمعرفة اسم المتصل، فتجد أنه «متولي» سائس السيارات أمام شركتها، لا تعيره اهتماما ويقفز إلى ذهنها أمرا يوترها، عن إمكانية أن يكون «مهاب» قد استخدم البرنامج نفسه لمعرفة اسمها عليه، «هند الخشاب».. هكذا وجدته، الإنسان لا يعرف في حياته اثنتين تحملان هذا الاسم كثيرا، تزيد من الأمر فتفترض أنه فعلها وعرف، ومع ذلك أصر على مقابلتها، إذن فهو لم يتزوج بعد.

تحاول أن تعارض نفسها حتى لا تستكثر في الأحلام، تبحث عن أي منطق معارض لتوقف نفسها من الاستزادة، لا تجد سوى جملة «مريم» التي صدمتها بها منذ أيام، أنها تتوهم الأمر بالكامل، تتوهم قصة «مهاب» من الأساس، حين عادت «هند» وسألتها عما كانت تقصده في الحنة حاولت «مريم» التهرب من الإجابة قبل أن تخبرها أنها لم تسمع قصة «مهاب» طوال علاقتها إن كانت أقوى قصص حبها كما تزعم، أخبرتها أيضا أنها قرأت في مكان ما عن أعراض توهم مشابهة لخلق شخصيات نحبها ونتمسك بها خاصة بعد عدة علاقات عاطفية فاشلة، حاولت أن تهون عليها الأمر فادعت أنها مرت بأمر مشابه بعد طلاقها، دللت على منطقها أن أحدا غيرها لم يشاهد أو يسمع مهاب أو محادثته له على الإطلاق، تفكر في الاتصال بوالدها لتذكرها بـ«مهاب» وتتوثق من وجوده لكنها لا تريد أن تزيد من أسئلة الأم التي تبحث لفتاتها عن عريس، تخرج رقمه وتضعه على برنامج truecaller، يظهر لها الاسم «مهاب الوكيل»، تطرد فكرة مريم فهي ما تزال عاقلة.

رقم «مهاب» مرتبط لديها بأم «مروان»، تشك للحظات أن قصة السيدة أيضا من نسج خيالها وأن أحدا لم يرد عليها في تلك الليلة مثلما حدث حين حاولت أن تفعل منذ أسبوع تقريبا، تخرج محمولها، وتبحث عن سجل المكالمات التي حاولت أن تقوم بها تجد بها رقم أم مروان منذ ما يزيد عن

أسبوع، تطلبه، تفتح مكبر الصوت وتنتظر، هذه المرة يجيبها جرس طويل قبل أن ترد عليها «أم مروان» بنفس صوتها الذي عرفته، يلتفت لها شخص جالس على مقربة منها فتتأكد إلى أنه أيضا يسمع صوتها، هنا تضع المحمول على أذنها، وتقول لأم مروان بصوت عادي:

- «ألو».
- «مرحبا».
- «ألو.. أم مروان؟»
- «الله يلعنه أينما كان».
- «أم مروان!!»
- «نعم، أم الزاني الشبيح».
- «ما الذي حدث يا أم مروان؟»
- «من أنت؟!»
- «أنا هند.. مصرية اتصلت بك منذ ٣ أو ٤ سنوات لتطمئن عليك وحكيتي لي عن ابنك وقدمه والجبانة».
- «خلاص.. لم يعد هناك ما أقصه عليك».
- «هل وصلتم بالسلامة إلى تلك القرية التي لا أذكر اسمها؟»
- «هل أنتِ غبية؟ أنت تحدثينني على هاتف منزلي.. الذي ما أزال فيه».
- «ولماذا لم ترحلوا؟»
- «رحلت لأدفن قدم الزاني الشبيح في الجبانة، وعندما عدت لم أجد أحدا، الشبيح أخذ زوجته ورحلا بدوني، لم يرد أن يتحمل تكلفة

شخص ثالث معهما أو عب، سيدة عجوز ترهقه مصروفاتها، رحل وأخذ معه كل شيء، المال والذهب وكل شيء، أخبرني الجيران حين عدت».

تصمت «هند» فتضيف السيدة التي تهدج صوتها: «أتدرين حقا أكثر ما آلمني، أنه تركني أدفن قدمه المبتورة، لو أنه صارحني منذ البداية بأنه سيرحل بمفرده لكنت تركت قدمه لتؤنسني».

يسود الصمت، تحاول السيدة التأكد من أنها ماتزال على الجانب الآخر من الهاتف، لكن «هند» لم تجب، تغلق السيدة الهاتف وتسمعها «هند» قبل إغلاقها تسب المتصلين الذي يعكرون صفو وحدتها، لترسم لهند نهاية القصة، تصب قليلا من الماء، وتشرب، تبتلع ريقها، تحاول أن تتماسك وألا تبكي من فرط الاكتئاب، تنظر إلى محمولها، إنها الثانية إلا ربعا، لو كان سيعتذر فإنه سيفعلها خلال الثواني القادمة، لم يتبق الكثير لتعرف، ترفع عينيها من شاشة المحمول وتثبتها في اتجاه الباب الخشبي.. وتنتظر أن تمر الدقائق.

ماريا هلفر ستراشي

(١)

كانت المرة الأولى التي يدلف فيها إلى محل الأدوات الجنسية الذي يبعد عنه مسافة مائة متر فقط في شارع «ماريا هلفر» لذلك انشغل بمشاهدة أضوائه البنفسجية الحادة التي تحيط قسم يبيع أعضاء ذكرية هزازة، ينتظر فتاة جلبت ملابس تنكرية مثيرة على هيئة قرصان حتى تدفع ثمنها إلى سيدة أربعينية شقراء تتولى مسؤولية المحل، ثم يسألها عن «زيرو»، تتفحصه السيدة بنظرة سريعة وكأنها تقوم بعمل مسح ضوئي عليه، ثم تخبره أنه في الدور السفلي الخاص بالألعاب السادية، تصيح بألمانية لا يفهمها رغم مكوثه عدة أعوام في النمسا، يفهم من صياحها أنها تخبر «زيرو» أن شخصا في الطريق إليه.

تصدر خطوات «أحمد» على السلم الخشبي الصغير الذي يقوده إلى الدور السفلي صوتا مرتفعا، بين الملابس الجلدية السوداء المطعمة بحلي وبروز معدنية فضية ونحاسية اللون يتخذ خطواته حيث يجلس «زيرو»

على الأرض ممسكا بيده مفكا ويبدو منشغلا بإصلاح كرسي هزاز يخرج في حركته عضوا ذكريا صناعيا، يسأل «أحمد» وهو يعلم الإجابة: «زيرو؟!»

يهز «زيرو» رأسه ويخبره أنه سيكون متاحا في خلال دقائق ريثما يأخذ جولة في المحل إن أراد، يشكره «أحمد» ويبقى واقفا في مكانه إذ لا يشعر بألفة للمكان، يدير رأسه بين تلك القطع، يتحرك ببطء دون أن يلحظ أنه اخترق حاجز عدم الألفة، يتحسس سوطا بنهاية معدنية حادة، ينظر إلى سعره، يشعر بصدمة، تجارة المنتجات الجنسية مربحة بالفعل أكثر من المجلات والجرائد، ينتهي «زيرو» الذي يبدو أنه يحمل هذا الاسم الكودي بفعل وشم استقر على جانب رقبته بالرقم وامتدت منه خطوط انسيابية تصل إلى الجزء العلوي من عضد ساعده الأيسر، يقف ويسير نحو «أحمد» ويضع يده على كتفه فيفزع الأخير نتيجة لانشغاله.

يسأله «زيرو» عما يريد، فيرد «أحمد» بارتباك، أن إحدى السيدات شاهدت عراكه منذ يومين مع البائع المقيم على الجهة المقابلة من الشارع ورأت الغضب في عينيه.

يحاول «زيرو» أن يربط طرف الحديث فيسأل بتعجب: «سيدة؟!»

- «سيدة لا أعرفها قالت لي أن آتي إلى هنا وأسأل عنك وأنك ستساعدني، ولا أعرف كيف قرأت أفكاري وقت العراك رغم أنني لم ألحظها بين المارة».

- «لا أفهم شيئا».

- «منذ يومين تشاجرت من بائع على الجهة المقابلة في شارع ماريا هلفر، ولأن إساءته لا يمكن السكوت عنها، فإنني قررت تأديبه».

- «وماذا تريد مني؟»

- «حين مرت بي تلك السيدة قالت جملة واحدة مفادها أنها رأت الشرر في عيني وأنني لن أتوانى عن قتله، ثم أشارت لي إلى المحل وقالت إنه يوجد قاتل أجير هنا يسمى زيرو».

- «آه، لكنني أشترط معرفة سبب القتل مسبقا».

- «إذن هل ستقوم بقتله إذا ما أخبرتك؟»

(٢)

حين رأى بيتهوفن الطيور تنطلق مذعورة من داخل برج كنيسة «شتيفانس» أدرك أن أجراسها قد رنت دون أن يسمعها، وقتها فقط أدرك أنه أصيب بالصمم، لا يعرف «فالديز» شيئا عن تلك القصة لكنه حين رفع رأسه عاليا ليرى الطيور تنطلق مذعورة من برج الكنيسة الأكبر في فيينا تساءل إن كان انشغاله بالتفكير عطل حواس السمع لديه فلم يلتفت لقرع الأجراس، يخطو بتردد إلى الكنيسة حين ينطلق صوت الأورغون مزيدا حالة الهيبة من اللقاء الذي يتحضر له، ومثقلا على روحه بأعباء إضافية.

لا يذكر أنه أدى طقس الاعتراف طوال سنوات إقامته في «لاتفيا» سوى مرة واحدة، حيث لم يكن قد ارتكب خطيئة ليتطهر منها، لكنه أراد أن يسأل أحدا أو ربما يسأل الرب نفسه ممثلا في القس الذي يجلس خلف شباك خشبي عن جدوى هجرته إلى النمسا، لا يرى في «لاتفيا» فرصا أفضل، ويعتقد رغم كونه مواطنا أوروبيا أنه مايزال درجة دنيا مقارنة

بأصحاب الجنسيات الأوروبية الراسخة، لذلك ارتحل إلى النمسا لا يدري تحديدا السبب في اختيارها دون غيرها لكنه يذكر أنه قرأ تقريرا سياحيا أن عاصمتها تعتبر أكبر المدن التي تضم مترجلين مبتسمين في الشوارع، والحقيقة أنه حين استقر في «فيينا» بصحبة زوجته ذات الأصول الشامية التي قابلها بعد هجرته أصبح يرى البسمات بين المارة في الشوارع لكنه اشتاق أكثر لأن يراها في مرآة منزله.

اليوم يجلس للمرة الثانية ليسأل الرب مرة أخرى، يبتلع ريقه في الغرفة الخشبية الصغيرة ويفرك يديه حتى تتعرقا قبل أن يقول للرجل المجهول الذي يجلس في مقابلته.

- «أحدهم ينوي قتلي».

يطلب منه القس التوضيح وأن يشرح المشكلة باستفاضة، فيجيب «فالديز» أنه علم أن الرجل المسلم الذي يبيع المجلات في الكشك المقابل له ينوي أن يستأجر أحدهم لقتله، يجيب القس بهدوء:

- «وما حاجتك لسؤال الرب في ذلك؟»
- «أنا أحتاج سؤال الرب عن كيفية أن أسامح الخيانة التي أشعر بها».
- «خيانة!»
- «خاصة وأن الخائن أنقذ حياتي، إنني في حيرة من أمري.. أخاف ألا أصدق وعد الخائن أنه لن يكررها رغم وعده».
- «وما الخيانة في ذلك، هل كان الرجل المسلم صديقا لك وبتهديده أو محاولته لقتلك يخون هذا العهد الإنساني بينكما؟»
- «لا، لم يكن صديقي يوما».

- «ولماذا تشعر بتأنيب ضمير إذن، أنت تحتاج لأن تأخذ حذرك وتبلغ الشرطة».

يسود الصمت للحظات يفكر خلالها «فالديز» فيما سيقوله، لكنه لا ينبس ببنت شفه، فيسأله القس

- «بني، هل مازلت معي؟»

- «نوعا ما، اسمح لي يا أبت.. أنت لم تسألني كيف عرفت أن الرجل الذي أخبرتك أنني لست صديقه ينتوي قتلي عن طريق تأجير قاتل محترف».

- «لأن الكيفية لن تغير من الأمر ومن إرادة الرب في شيء».

- «لكنها ستغير في معرفتك لسبب قدومي هنا».

- «إذن كيف عرفت؟»

- «أخبرتني زوجتي..»

يصمت قليلا فيبادله القس الصمت للحظات قبل أن يكمل «فالديز»:

«زوجتي اعترفت لي أنها تخونني بالأمس، وأنها كانت تقيم علاقة لمدة شهور مع رجل دون علمي.. وأن الرجل أخبرها باستئجار المسلم له لقتلي وهو يضاجعها في المرة الأخيرة».

(٣)

عين الخبير أخبرته أن الإصدار الجديد تحديدا سينال قبولا غير مشهود، فضول الفضيحة يسبق شهوة العري دائما، يعلم ذلك منذ أن كان صعبا على جيله في فترة المراهقة الوصول بسهولة إلى فيلم «ذئاب لا تأكل اللحم» حتى يستطيع أن يروي فضوله برؤية ناهد شريف عارية، تلك الصورة التي رسمتها مخيلته في أفلام سابقة، والفضول ها هنا ما هو إلا محاولة لمطابقة تلك التوقعات بحجم الواقع الحقيقي، لذلك أدرك جيدا أن تلك الفتاة المغمورة لن تكون محور اهتمام القراء، ليس بين المارة في شارع «ماريا هلفر» أحد يعرف «كاثرينا دارلينج»، فتاة مغمورة تكتسب كل شهرتها من كونها أحد أبناء عمومة «كيت ميدلتون» دوقة كامبريدج، ويكتسب هو قوته من وضع مجلة «بلاي بوي» التي تتصدر الفتاة غلافها في موضع مناسب بين بقية الصحف والمجلات التي يبيعها في الكشك الخاص به، يمر مراهقان به، يبدو أنهما من أيرلاند، هكذا خمّن هو كما اعتاد أن يخمن جنسيات المارة

دوما، تلك العادة الريفية التي اكتسبها من بيت عائلته ومن التقليد الشهير بالسؤال عن بلد المنشأ أثناء التعارف ليكون جواب السائل تلك الديباجة المشهورة بـ «أجدع ناس»، يمسك أحد المراهقين المجلة ويتجه إليه حيث يجلس ويناوله تكلفتها ويدير ظهره منصرفا، فيباغت «أحمد» المراهق بعبارة مازحة «المجد للملكة»، يلتفت له المراهق ويترجل خطوتين تجاهه في غضب وهو يلقي المجلة في وجهه معتبرا المزحة سخرية منه كونه بريطانيا، يرتفع صوت المراهق بالسباب ويحاول صديقه أن يمنعه من الاشتباك مع «أحمد»، وينجح الصديق أخيرا من وضع حد للجلبة التي شدت الناس في الشارع التجاري الأول في فيينا، يجذب المراهق الذي اعتقد أحمد أنه أيرلندي ويرحلان، يشعر «أحمد» بنوع من الحرج، فيتقوقع في محله الخشبي ينحني ليلتقط المجلة التي ألقاها المراهق في وجهه رغم أنه دفع ثمنها، يردد في سره أن الولد مجرد أحمق بريطاني آخر وأنه كان لزاما عليه أن يعرف أن تلك الحماقة ليست أيرلندية، يفتح المجلة ويتأمل موضوع الغلاف حيث تستقر كاثرينا على ثماني صفحات عارية في أوضاع مختلفة، يتأكد بتصفحه أن فضول المعرفة أشد إثارة من المعرفة نفسها، يضع المجلة مكانها، وينهض من موقعه ويفك أزرار قميصه الأخضر ليظهر تحته «تي شيرت» أبيض كتب عليه بالعربية والإنجليزية «فداك أبي وأمي يا رسول الله»، يعبر الطريق في اتجاه فالديز الرجل الذي يمتلك كشك الصحافة في الشارع المقابل، يلقي عليه التحية فيرد فالديز باقتضاب، يسأل أحمد: «جئت إليك مرة أخرى لأستكمل حديثنا السابق».

- «أنا مشغول حاليا وأعتقد أنك تركت كشك المجلات خاصتك فارغا».
- «لكنني أحتاج إلى أن أثنيك عما ستفعله يا فالديز».
- «لقد تحدثت مع شريكي وأخبرني أننا لن نقاطع أي صحيفة».

- «لكن (شارلي إبدو) الفرنسية أعلنت أنها ستسب رسولنا في عددها القادم».
- «أنت تعلم أنها صحيفة ساخرة وهذا هو منهجها».
- «أترضى أن تسب الصحيفة رسولك يا فالديز».

يصمت «فالديز»، فيشك «أحمد» في دياثته، للحظات يعتقد أن «فالديز» قد لا يكون مسيحيا، الاسم شائع جدا في المسلسلات المكسيكية، يستعيد ذكرياته إن كان اسما لأحد أبطال الموسادفي مسلسل «رأفت الهجان»، يحاول أن يقطع الشك باليقين من خلال سؤاله المعتاد «من أين أنت يا فالديز؟»

- «لاتقيا».

يسود الصمت للحظات، لا يعرف «أحمد» تلك البقعة من الأرض، سيظن وسيتحول ظنه إلى يقين أنها دولة تقع في الشرق الأدنى، بالتأكيد هي بين إسطنبول وإيران، لكن إسطنبول يسكنها السنة، وإيران يسكنها الشيعة، تزداد حيرة «أحمد» في تحديد هوية الرجل فيقرر أن يلقي بآخر أوراقه، يشير إلى الـ «تي شيرت» الذي يرتديه، يمرر فالديز عينيه على العبارة، يقول «أحمد» بشكل حاسم: «يجب أن تعلم بشكل حاسم أن تلك هي عقيدتنا، لن أكون أقل من أخوتي الذين يتظاهرون في كل بلاد المسلمين، نحن مليار مسلم ولن أسمح بتلك الإهانة».

في طريق عودته.. يغلق «أحمد» أزرار قميصه حتى لا توقفه الشرطة بسبب الشعار الديني الذي يرفعه على صدره خاصة وأنهم قد يعتبرون الجملة تهديدا واضحا، يلمح المراهقين وقد عادا، يسأله البريطاني الغاضب عن نسخته فيناوله لها وهو يحاول أن يبتسم بهدوء مرددا عبارة عن ضرورة أن يشتري من عنده باستمرار.

(٤)

هنا سقط الرحيق ليكسب تلك الأراضي قدسية لا توصف، ستتشبع روح «راجيف» وجسده بهذا السحر الإلهي حين يتحرك عاريا مبللا بمياه نهري «الجانج» و«يمنا»، سيصلي كما لم يفعل من قبل وربما يسقط مغشيا عليه بفعل التعب أو بفعل الزحام بين الملايين المكدسة في أكبر طقس ديني عرفه العالم والذي لم يتبق أمامه سوى عام واحد، عام واحد يتوجب عليه أن يجمع ما قدر من الأموال حتى يشد الرحال من «فيينا» التي دخلها بشكل غير قانوني حتى يصل إلى «الله أباد»، مكملا رحلته التي قطعت نصف الكرة الأرضية وامتدت لعشر سنوات منذ قرر أن يترك بلاده للمرة الأولى، حتى يشارك في «كومبه ميلا» الحج الأقدس له.

يعيده صوت ارتطام السكين بالطبق إلى واقع المطعم الذي يجلس فيه، ينظر إلى قطعة اللحم الكبيرة التي يقطعها «أحمد» فيشعر بقدر من الغثيان، يشيح برأسه فيجد أن صاحب المطعم زين أحد أركانه بلوحة القبلة الشهيرة

لـ «جوستاف كليمت»، جاورها بلافتة مكتوبة بالإنجليزية والعربية تحمل كلمة «حلال»، يعرض عليه «أحمد» قطعة من اللحم، فيشير «راجيف» بيده رافضا، فيبالغ أحمد في العرض ويضع اللحم جبرا على طبق البطاطس المخفوقة التي طلبها «راجيف»، ينظر «راجيف» إلى الطبق الذي لوثه اللحم، ويشعر أنه لا فائدة من أن يخبر الغريب الذي يقابله أنه هندوسي، يبتسم أحمد وهو يقول:

- «أنا شرقاوي من مصر، أكرم خلق الله.. من أي البلاد أنت.. تايلاند؟»
- «سورينام».
- «آها، ليست ببعيد عن تايلاند، كان تخميني الأول أنك من شرق آسيا».
- «لكنني من سورينام».
- «وأين تقع سورينام بالظبط..ما أقرب الدول لها يعني؟»
- «غويانا الفرنسية .. تقع شرق بلدتي».
- «أي دول أخرى لأنني لا أعرف شيئا عن غويانا الفرنسية».
- «غربا.. تقع غويانا».
- «لقد أثرت حيرتي .. غويانا من الشرق أم من الغرب؟»

ثم نظر إلى الطبق الذي يقابل «راجيف» وقال:

- «لماذا لا تأكل؟ لا تقلق ليس لحما للخنزير».
- «نحن من أمريكا الجنوبية.. دعك من مكان سورينام فهو أمر لن يغير شيئا.. أين صورة الجثة المحترقة؟»

- «لن أحكي لك شيئا قبل أن تأكل.. عيش وملح يا أخي».

يشعر «راجيف» بالضيق، خاصة وأنه قليل الكلام ولا يعشق تلك الشكليات الاجتماعية، يقرر أخيرا أن يتخلى عن صمته:

- «لن أستطيع فأنا هندوسي».

- «آها.. دعني أسأل».

ثم يلتفت إلى البائع ويسأله عن نوع اللحم فيخبره أنه لحم ماعز، فتنهلل أساريره وهو يقول: «لا تقلق.. إنها ماعز وليست أبقار».

لا يجيب «راجيف» وينظر بتململ، وضجر من الشخص الذي يستشعر منه الإهانة ويقول له: «أين صورة الجثة المحترقة؟ ومتى سأحصل على أموالي؟»

يخرج «أحمد» صورة «فالاديز» ويخبره أنه يتردد مؤخرا كما عرف على كنيسة «ستفانس»، ثم يقول له وهو يقترب منه بصوت منخفض: «لقد أعطاني زيرو مسدسا قد تحتاجه في..»

ينظر له «راجيف» بثقة ويقول: «هششش! حين أقبل مهمة فإنني لا أستخدم سوى مسدسا ذا ساقية جلبته معي من سورينام ورصاصة واحدة أضعها في الساقية كأول رصاصة.. أتدري لماذا؟»

لا يجيب «أحمد»، ولا ينتظر «راجيف» بالتبعية رده ويكمل بهدوء القتلة: «لأنني لا أضع أي احتمالات أن تخطئ رصاصتي».

ينهض «راجيف» فيرتطم الطبق بالطاولة محدثا صوتا خفيفا، ويهم بالانصراف فيستوقفه «أحمد»: «هل القتل لديكم حرام يا راجيف؟»

يبتسم «راجيف» قائلا: «بالطبع، وماذا عنكم؟»

(٥)

صدمة «ماندريكا» التي يحاول أن يخرجها بأدائه الأوبرالي لا تؤثر في زوجة «فالديز»، فلن يعنيها شيئا من أن «ماندريكا» شعر بغصة من «آرابيلا» بمجرد سماعه للحديث المزعوم بين «زدنكا» و«ماتيو»، «زدنكا» تعد «ماتيو» أن الحسناء الجميلة ستنتظره في غرفته الليلة، وتترك لمسترق السمع أن يسرح بخياله فيما قد تفعله تلك الحسناء في غرفة مغلقة.

تحرك زوجة «فالديز» نظرها بين المارة في الممشى والشاشة الضخمة التي وضعتها أوبرا فيينا على حائطها، مع عدد كبير من المقاعد على الممشى القرميدي المجاور للأوبرا، هكذا يشاهد فقراء فيينا «آرابيلا» رائعة شتراوس، وينبهر بعض السياح بالموسيقى التي تنبعث في الهواء للجميع، ويندمج البعض مع الأداء الأوبرالي الذي نفذت تذاكره منذ عدة أشهر، بينما تنتظر الزوجة «فالديز» الذي طلب منها أن يقابلها هناك حتى يتحدثا قليلا.

يخرج «فالديز» من محطة الأوبرا المجاورة مضطربا، يستشعر صعوبة في أول لقاء بعد اعتراف زوجته بخيانته، ورغم أنها بكت وذرفت الدموع ووعدته أنها لن تكررها لأنها حريصة عليه وعلى حياته إلا أنه يشعر بارتباك حقيقي من هذا الحوار، يتذكر حديثها عن قطع علاقتها بالعشيق القاتل، تتضارب عنده المشاعر، ينظر إلى الأرض محاولا تصفية ذهنه، ينظر إلى نجمة معدنية تحمل اسم «شتراوس» تخليدا له في الرصيف القرميدي، ويتلفت بعينه بين الجلوس بحثا عن زوجته، يتجه إلى الشاردة الجالسة وحيدة، ويحاورها المقعد ويسألها عما تذيعه الأوبرا الليلة.

تجيب: «أرابيلا».

- «لم أشاهدها من قبل، الحقيقة أنني لم أشاهد أوبرا طوال حياتي..»

تشعر هي بغرابة في عبارته، فلا تنتظر منه أن يحكي لها عن ذكرياته مع الأوبرا بعد يومين فقط من اعترافها بالخيانة، تنظر له بينما يتحاشى هو النظر إليها ويسألها بهدوء:

- «هل أخبرك ذلك الـ.. الـ.. الـ..»

يجد صعوبة في وصفه بينما تعلو المقدمة الموسيقية للفصل الثالث من أرابيلا لتشرح بشكل موسيقي تلك العلاقة الجنسية بين «زدنكا» و«ماتيو»، يحاول أن يستغل تلك الموسيقى في أن يلقي الكلمة فقط ليتجاوز التوتر الذي يشعر به

- «هل أخبرك ذلك العشيق عن..»

- «لا».

تقاطعه وهي تشيح بوجهها حتى لا تنظر إلى عينيه، تخبره أنها تعرف سؤاله وتضيف: «لا، لم يخبرني عن موعد أو كيفية قتلك».

- «لماذا؟»

- «لأنه رفض المهمة وأصبحت موكلة لأحد معارفه».

- «بسببك؟»

- «لا أدري، لقد قال لي الموضوع على عجالة ففزعت لدرجة أنني لم أستطع أن أكمل آ...، وهو ارتبك بالتبعية وترك مسدسه ورحل».

- «أين تركه؟»

- «بجوار السرير حيث كنا نـ...، لا يهم لقد احتفظت به في الدولاب وأنوي التخلص منه».

- «لا، أريد هذا المسدس.. أريده معي، سيشعرني بنوع من الأمان».

- «هل ستتحرك حاملا سلاحا.. أنت تعلم عدم قانونية الأمر».

- «انتهى وقت القانون.. أريد سلاحا للدفاع عن نفسي.. وأريد شيئا آخر».

ينظر «فالديز» إلى الشاشة ويهمهم بصوت مرتفع وكأنه يحدث نفسه: «أريد أن أعرف متى سيحاولون قتلي»، ثم يصمت قليلا ويقول لها :«أريد منك أني تعرفي ذلك».

تنظر له بنوع من الاندهاش «كيف؟»

- «أريدك أن .. أن تضاجعيه مرة أخرى لتعرفي الأمر».

- «ماذا؟!»

- «هذه المرة من أجلي فقط ..»

- «لقد أخبرتك أنها كانت غلطة وقد تبت عنها بمجرد إحساسي باحتمال فقدك».

- «أرجوك».

- «لن أستطيع.. لقد صليت بالأمس وتمنيت من الله أن يسامحني وأن تسامحني أنت أيضا».

- «أرجوك.. ضاجعيه من أجلي.. مرة أخيرة.. لن تؤثر كثيرا».

تجهش الزوجة بالبكاء، فيستدير «فالديز» يجثو على ركبته، يحتضن كف يدها بين يديه، ترتعش، فيحاول أن يهدئها، يزداد نحيبها فيربت على كتفها وهو يقول :«مرة أخيرة لن تؤذي أحدا.. مرة أخيرة لن تكون بهذا السوء، فقط من أجلي في أقرب وقت».

(٦)

يمسح أحد الزوار نظارته بفعل بخار الماء المتكون عليها بفضل اختلاف درجة الحرارة الخريفية بالخارج عن حديقة «جنة الفراشات»، حيث تساعد الصوبة الزجاجية العملاقة على خلق مناخ استوائي يساعد على نمو عدد من النباتات والزهور تسمح للفراشات بالتواجد فيها، لم يفهم «أحمد» سبب اختيار «زيرو» للمكان لكي يستمع إلى سبب خلافه مع «فالديز» ويخبره بأتعابه، اضطر «أحمد» أن يدفع ستة يورو كاملة لكي يدخل المتنزه وهي رفاهية كبيرة لشخص مثله يعيش في بلد تملأها المتنزهات العامة.

لا يوجد في منزل الفراشات سوى رجل أشيب، وسيدتان تكوّن على قبتي نهديهما خط من العرق بفضل بخار الماء فأكسبهما المزيد من الإثارة، و«زيرو» الذي كان يجلس في نهاية المتنزه ممسكا في يده فراشة برتقالية اللون جميلة، ذات خطوط بنفسجية عند أطرافها، يقترب منه «أحمد» وينظر إلى الأعلى حيث يتابع «زيرو» فراشة بنية تحلق على ارتفاع منخفض، يلحظ

«زيرو» وجود «أحمد» فيقول دون أن ينظر إليه: «ديدان الأرض الملونة»، ويكمل بنفس طبقة الصوت الدرامية: «نحن نعشق الديدان الملونة»، لا يجيب «أحمد» إذ لا يتحمس لتلك النوعية من العبارات التي لا يفهم إن كان المقصود منها مدحا أم ذما أم مجرد فلسفة تصلح كمقدمات لمشاهد السينما، يشيح بوجهه ملاحقا فراشة ذات لون أزرق داكن ويهمهم بصوت مسموع: «الله»، ثم يلتفت إلى «زيرو» ويقول: «ولهذا السبب أريد التخلص من فالديز»، يجلس على المقعد الخشبي بجوار «زيرو» ويقص عليه الخلاف حول المطبوعة المسيئة للنبي محمد، وأنه مستعد لفعل أي شيء ليشارك في منعها على نطاق قد يراه البعض ضيقا، ثم يزيده بالحديث عن قيمة المشاركة وأن كل مسلم في موقعه قد يفعل شيئا صغيرا، يرسم به الجموع صورة أكبر لعالم إسلامي أفضل.

ينهض «زيرو» من موقعه ويترجل خطوة تجاه زهرة تجمع حولها فراشتين، يقول بهدوء من لم يهتم بالقصة: «لكنني ملحد.. وأمتنع عن المشاركة في قتل أحدهم لسبب ديني.. هذا يخالف مبدأي».

يخرج أحمد صوتا أنفيا، يتبعه ببسملة وحوقلة وكأنه يتراجع عما فعله ويحاول أن يجاري «زيرو» في هدوئه، ويقول:

- «هذا عمل».
- «مبني على أساس ديني، وأنا ضد دخول الدين في الحياة».
- «اعتبرني سأقتله من أجل شأن آخر».
- «لا يمكن، أنت قلت لي إن السبب أنه مسيحي يبيع مجلات تهين الإسلام.. والحقيقة أنني لا أهتم، لن أفعلها وأقتله».
- «لكنك ملحد».

- «وما الضرر في ذلك؟»
- «أقصد أنك سواء قتله أو لم تفعل فأنت كافر.. سيكون مثواك الجحيم في كلا الحالتين».

ينظر له «زيرو» نظرة تحمل كثيرا من الاحتقار، يحاول «أحمد» أن يتدارك الجملة التي لا يراها إهانة لكنه يحاول تخفيف وطئها عليه فيقاطعه «زيرو»:

«نحن الآن في جنة الفراشات، والجحيم خارج هذة الصوبة يا عزيزي، سأخبرك عن زميل آخر قد يؤدي هذه المهمة بدلا مني».

ويضيف: «هذا المكان تحديدا لن تستطيع كاميرات المراقبة ملاحظة ما يجري فيه بسبب بخار الهواء، عكس الحدائق والمتنزهات العامة، خلف تلك الشجرة ستجد مسدسا يمكنك أنت أو البديل الذي سأخبرك عنه أن تستخدماه للقضاء على الرجل، فقط اترك قيمته التي أخبرتك عنها سابقا في نفس المكان».

ثم يختتم: «اسمه راجيف، وستجد طريقة الاتصال به في هذه الورقة»، يناوله الورقة المبللة ويتحرك «أحمد» بينما يعود إلى موضعه على الكرسي الخشبي متأملا ديدان الأرض الملونة.

(٧)

في المساء، ينعق غراب من مكان ما بين أشجار الحديقة التي يمشي «راجيف» خلالها، يعتقد الأخير أن روحه قبل أن تسكنه كانت لـ «غداف»، ذلك النوع الحاد من الغربان الأوروبية، يظن أن هناك تشابها بينه وبين الطائر الجاد الصارم الذي لم يختر سواد لونه، يحاول أن يغرق ريشه في الأنهار المقدسة الثلاثة لترتقي روحه إلى مراتب لم تصلها من قبل، يؤمن «راجيف» كغيره من الهندوس أن الروح السعيدة تنتقل إلى إنسان آخر سعيد، يضع هدفا أمامه أن ينقل تلك الأمانة قبل أن تتفحم جثته إلى رجل أكثر سعادة، يقف حيث اتفق مع «أحمد» أن يلتقيا، يفتح مسدسه ذا الساقية ويضع رصاصة واحدة فقط كما اعتاد بينما يتلاشى نعيق الغراب.

المسدس الذي يضعه «أحمد» بين بنطاله ومعدته لم يساعده على تناول الشاورما جيدا، يجذب البائع التركي الطبق وهو يتحير من زبونه الأكول، يسأله أحمد أن يروي له مرة أخرى قصة السلطان التركي الذي حاصر فيينا،

يخبره البائع أنه «سليمان القانوني» وأن المجريين والفرنسيين هم من طلبوا منه احتلال فيينا ثم يمصمص شفتيه ويقول شيئا عن الدول الأوروبية التي كانت تتسابق أن يدخلها الإسلام لعظمته، يستشعر «أحمد» شيئا مميزا في القصة التي سمعها من الرجل مرارا بتأويلات وتفاصيل مختلفة كثيرا وكان يوعز ذلك إلى اختلاف قصص المؤرخين أنفسهم لا قلة معرفة البائع التركي، يخرج مسرعا حتى المكان الذي اتفق فيه مع «راجيف» أن يراه، يطلب منه «راجيف» أمواله، فيخبره «أحمد» أنه سيعطيه إياها بعد التنفيذ، ويقول لكي يطمئن «راجيف»: «سأحضر معك أثناء التنفيذ».

يعترض «راجيف» لأنه لا يحب أن يصطحب معه أحدا في عمليات القتل لأنه لا يتنزه، فيقول «أحمد» إنه يريد أن يرى الندم في عيني الكافر الذي تجرأ على دينه، وأن يلمح استعطافه في صوته، ثم يقول: «هي أمور لن تفهمها لأنك هندوسي»، ينظر له راجيف ويكتم غيظا واضحا عليه، ويكتفي بأن يخرج مسدسه مرة أخرى ويفتح ساقيته ليضع رصاصة ثانية في الساقية.

(٨)

في أسبوع واحد تكررت زيارة «فالديز» إلى كنيسة «شتيفانس»، هذه المرة يود أن يعترف للقس بما أجبر زوجته عليه، يشعر أن روحه تلوثت وأنه لن يستطيع أن يخبر القس بما فعله، يدخل إلى الكنيسة ويقف في المذبح الرئيسي، انتهت الصلاة ولا وجود إلا لبعض السياح الذين مايزالون يترددون على الكنيسة، يطلب أحد السياح أن يساعده في تشغيل ماكينة عملات تذكارية تحمل صورة الكنيسة، يخبره «فالديز» أنها تتطلب يورو واحدا، يخرجه الرجل فيسأله إن كان يريد العملة التذكارية تحتوي في الجهة المقابلة للكنيسة صورة المسيح أم السيدة العذراء، فيجيب الرجل: «المسيح.. مع المسيح ذلك أفضل»، ويبتسم فلا يبادله «فالديز» الابتسام ويتذكر أنه أجبر زوجته أن تضاجع الليلة رجلا آخر لأنه لم يستطع أن يكون فداء كالمسيح، لكنه يتراجع ليجد في نفسه مبررا قويا من نفس الفكرة، هو ليس المسيح، ولن يكون، ويمكنه أن يتوب عن خطيته أمام المذبح بعد أن تنهي الزوجة مضاجعتها.

يخرج من الكنيسة ويجلس في الساحة الخلفية لها، المكان مظلم وموحش، يزيده وحشة ما قرأه سابقا أن تحت تلك الساحة تم اكتشاف ألفي قبر روماني بنيت الكنيسة فوقها، أو للدقة بني المعبد فوق رفات الرومانيين إلى أن جاء وقت ما، لا يعرف الجميع ما الذي دار فيه، وما الذي جعل كنيسة «شتيفانس» تتأسس على أنقاض المعبد القديم، يحرك قدمه فوق القرميد وكأنه يتوقع أن ينبش جثة رومانية، يقطع السكون الذي يخيم على الساعة الخلفية صوت محموله وقد وصلته رسالة، إنها زوجته التي تضاجع غريبا فوق فراشه، رسالة تحمل كلمة واحدة ينتظرها: «الآن».

(٠)

بين جدران هذا المتحف البائس يجلس «زيرو» يوميا طوال ساعات العمل قبل أن يذهب إلى محل الأدوات الجنسية في شارع «ماريا هلفر»، قليلون يهتمون بزيارة متحف «سيجموند فرويد» في فيينا، فالأغلب يجهلون ماهية الرجل أو جنسيته، وإن توافر لديهم هذا الحد من المعلومات فإنهم لا يضيعون وقتهم في التجول بين الأثاث القديم أو رؤية الكرسي العتيق الذي جلس عليه فرويد يستمع إلى حالاته، ثم يفاجأوا بأن الأريكة الشهيرة ليست ضمن المعروضات، أو أن يضم المتحف أحداثا لشرح نظريته عن الأنا والهو والأنا العليا بطريقة تفاعلية مبتكرة، لهذا لا يتجاوز عدد الزوار في اليوم الواحد أصابع اليدين، أغلبهم لا يستمعون بقدر «زيرو» نفسه، الذي يضطر للوقوف مرتديا زي عامل الأمن ليحفظ الأمن في متحف لم يصادف فيه مشكلات سوى محاولات طفل للجلوس على الكرسي.

ينهي ورديته اليوم ويتجه إلى منزل «فالديز»، يعلم جيدا أنه غير موجود

وأن هناك أمورا في هذه الحياة تستحق العيش من أجلها، وأن فرويد لو عاش ليرى حركات زوجة «فالديز» المثيرة على الفراش لكتب نصف نظرياته النفسية المتعلقة بالجنس باسمها.

تقترب منه وهي تضع عطرا ساحرا وترتدي قميص نوم أسود اللون، يضحك ويقول: «أسود! إنك تستعدين للحداد من الآن»، تذكرها الجملة بشيء نسيته فتتراجع وتقول له: «نسيت أن أرسل الرسالة إلى فالديز، ثوانٍ»، تتجه إلى محمولها وترسل كلمة «الآن» إلى زوجها الذي اتجه إلى ساحة كنيسة «شتيفانس»، بينما تكفل «زيرو» بإخبار «أحمد» بموقع ضحيته.

يقبل «زيرو» فتاته ويسألها عما سيفعلانه بأموال «فالديز» بعد أن يقتل الليلة، تسأله في شك: «وماذا لو فشل الرجل الذي استأجره أحمد لقتل زوجي في أن يتم العملية؟»، يجيبها بهدوء «حينها سيقتله أحمد نفسه لأنني أعطيته سلاحا، فإن فشلا فسيقتلها زوجك الذي أعطيناه سلاحا آخر وسنصل لنفس النتيجة».

«زيرو» هو من أقنعها بأن الطلاق لا يفيد لأنها على أفضل الأحوال ستحصل على نصف ما يملكه زوجها إن لم يباطلها، في الوقت الذي تستطيع فيه أن تحصل على أمواله كاملة، قال لها إن التخلص منه يتيح لها التمتع بالفراش وبأموال صاحب الفراش، الفكرة التي استنكرتها في البداية وهي تقول بلهجة قاطعة إنها ليست قاتلة ولا تفكر في استخدام السم مثلا، فأخبرها أنه لا يشترط أن يكونا قاتلين حتى يجهزا على الزوج.

تتصارع الأنا العليا الباحثة عن الكمال في منطق فرويد، مع «الهو» في طبيعتها الفطرية الحالم والشهوانية أيضا، كلاهما تحاولان جذب عقل الإنسان وروحه في صراع داخل عقل الإنسان الباطن بينما تحاول الأنا في النهاية أن توازن بين كمال الأنا العليا وشهوانية الهو، وهو نفس ما قفز إلى

ذهنه حين شاهد عراك «فالديز» مع «أحمد» لمعت الفكرة في ذهنه، أشار على زوجته أن تذهب إليه بعدها بيومين لتزرع الفكرة فقط، تخبره أن الشرر المتطاير من عينيه لن يطفئها سوى التخلص من الرجل وأن تزعم أن قاتلا أجيرا في محل الأدوات الجنسية يدعى «زيرو»، حتى عندما أخبرها بأن تعترف للزوج بخيانته لها لم يكن يتوقع أن يخدمه القدر لدرجة تجعله ينام على فراشه بعلمه الآن، كان جل ما يرجوه هو أن يزود الزوج بسلاح، حتى يصل بمنطق الاحتمالات إلى ضمان التخلص من «فالديز»، مقتولا أو قاتلا، معتمدا على دعم الرجال الثلاثة المدفوعين برغبتهم وتوقهم إلى عالم آخر يحيون فيه ويؤمنون به.

في مكان آخر ليس ببعيد عن شارع «ماريا هلفر» وقف «سليمان القانوني» محاصرا، ونعق «غداف» أسود اللون فوق قبور ألفين من الرومان الذين تحول معبدهم إلى كنيسة، حيث يقف ثلاثة رجال من أقاصي الأرض يجمعهم هدف في أن ينهي كل منهم حياة خصمه، بينما باعدت سيدة جميلة من أصول شامية ترتدي قميص نوم أسود بين ساقيها وقالت وهي تتحس وشم الرجل الذي يعلوها أن يمنحها الحياة.

بشكل اعتيادي

(١)

يقولها بصوت متهدج وذابل كالورد محاولا أن يقلل مساحة الصمت بين كلماته: «لوكيميا.. سرطان الدم».

(٢)

يخرج جلال من المستشفى في حلة سوداء غير مهندمة، يحاول أن يتنفس هواء عميقا بصدره، في الساحة الأمامية يستند على عمود الإنارة قبل أن يفك رابطة عنقه ليسمح للهواء بالانتشار في صدره، وصدى العبارة الأخيرة يتردد في ذهنه: «لا أدري كيف أقولها لك.. لكن ما تبقى لم يعد كثيرا».

(٣)

يتحرك جلال في شقته القديمة، يفتح ضلفتي الشيش الخشبي ساعما لنور الشمس الذي يغمر شرفته بأن يتسلل قليلا إلى داخل الشقة، ينظر إلى مسجد «رابعة العدوية» المواجه له وإلى العمارات الكئيبة المشابهة لعمارته، يشيح بنظره إلى أصيص النعناع الموضوع على أفريز الشرفة، يمسك بخاخا بلاستيكيا كان قديما مليئا بملمع الأسطح، يرش قليلا من رذاذ الماء فوق الزرعة، يدلف إلى الداخل ويحضر قطنة من كيس موضوع على السفرة، يلحظ أن رجاء بلمليح قد بدأت في غناء «يا غايب» عبر الراديو الذي يديره دائما، يرفع الصوت قليلا حتى يصله حين يعود إلى الشرفة.

يمسح بالقطنة أوراق شتلة النعناع، يتطاير رذاذ محمل بذرة تراب فوق ياقة قميصه الأبيض ليستقر في صورة بقعة طينية صغيرة.

ينهي مهمته ويعود إلى الداخل ويغلق ضلفتي الشرفة جزئيا، ينظر إلى المرآة ويقنع نفسه أن البقعة غير ملحوظة ويرتدي جاكيت بدلته الكحلية قبل أن يغادر الشقة.

(٤)

حين خرج من بوابة عمارته ترجل قليلا قبل أن يدخل إلى مشتل الزرع الموجود على نفس رصيف عمارته، يعرف طريقه إلى الداخل جيدا، رغم أن هيئته توحي بأنه أبعد ما يكون عن الورود إلا أنه يحفظ أسماءها جيدا، يمسك بيديه زهرة جلاديولاس زرقاء، يتجه إلى مكتب خشبي ويمسك

بفوطة برتقالية ومقص الزهور، بزاوية نصف قائمة يقطع خمس زهرات من ساقها، القطع المائل يحافظ على عمر الزهرات التي أصبح مقدرا لها الموت منذ تم اقتلاعها، عملية لإطالة أرواحها، ومنحها نهاية شاعرية، يبدأ جلال في مسح توييجات الزهرات بالفوطة البرتقالية، تتابعه عينا شاب ثلاثيني يقف في ركن المحل بصحبة زبونة في عقدها الرابع، يقول بلهجة إطراء واضحة وهو يمد في حرف العلة: «جراح».

يتجه إليه جلال وعلى وجهه ابتسامة مناولا الزهور له، فيعرف الثلاثيني أنها الزهور المطلوبة، يسأل: «متى ستمر لتأخذ الزهور؟»

- «في الرابعة»

- «ولماذا التأخير؟! الشمس تغيب باكرا.. لا تنس أننا في نهاية يناير».

- «لن أنتهي من المستشفى قبل ذلك».

يضع الشاب الثلاثيني الورود في إحدى المزهريات ويعود إلى جلال ناظرا إلى ياقة قميصه، يسأله: «الورد بقع قميصك»، يجيب جلال بهدوء: «لا تهتم إنها زرعة النعناع في الشرفة».

يهم البائع بجلب قطعة قماشية عارضا المساعدة: «هل أمسحها لك؟»، فيشير له جلال أنه لا يريد ذلك ويتعلل بأنه تأخر على المستشفى.

يترجل خارجا ويعود قائلا: «جهز لي ١٠ بالونات هيليوم مع الورود».

يرتبك العامل ويقول: «بلاش موضوع الهيليوم».

يكمل جلال بلهجة حازمة مازحة: «افعل ما أقول وإلا اقتلعت رأسك حين أعود».

يسأل العامل: «وهل ستنقلها في سيارتك؟»

يجيب جلال وهو يعرف ما يعنيه العامل: «بل بسيارة أجرة كما تعودت».

(٥)

يبتسم سائق التاكسي دون مبرر فيكشف عن أسنان مصفرة، يشير إلى جلال بسيجارة سوبر أخرجها من كرتونتها، ويقول عارضا لفافة التبغ عليه: «سيجارة»، يبتسم جلال رافضا العرض فيسأله السائق: «وهل سيضايقك أن أدخن؟»

يحاول جلال أن يثنيه باسما: «وهل تعتبر هذا سؤالا صحيحا لرجل استوقفك ليقصد المستشفى؟»

يقول سائق التاكسي وهو ينظر إلى الطريق: «لا أدري ماذا أقول لك.. لكن ما تبقى ليس بالكثير».

يشرد جلال في الجملة الأخيرة فلا تلفته عبارات السائق المستدركة التي يحاول أن يقولها عن أن أحد الزبائن طلب منه عدم التدخين في إحدى المرات فرفض لكنه لن يفعل ذلك مع جلال لأنه زبون بشوش، يفيق جلال من شروده قائلا: «أنزلني هنا».

يحاول السائق أن يتمسك بزبونه الذي لم يصل مشواره بعد لكن جلال يصر، يضطر السائق للوقوف على جانب الطريق، ينظر جلال إلى العداد الذي يشير إلى ٣١ جنيها وقروش، يناول السائق أربعين جنيها ويقول: «خلي الباقي علشانك»، يشعر السائق بالضيق قائلا: «أترك لي بقشيشا وأنا حتى لم أوصلك إلى المكان؟»

يضحك جلال ملقيا دعابة ارتجاعية: «سأتمشى قليلا.. أنت تعرف.. الباقي ليس بالكثير».

يحاول السائق أن يحلل الجنيهات التسعة الزائدة فيبدأ في سرد عبارة مطوطة مختلطة بالاعتذار عن سلوكه وأن الزحام جعله شخصا عصبيا وأن السيجارة هي الأمر الوحيد الذي يضبط دماغه.

يقول جلال: «ولتلك الأسباب فقد أقلعت عن القيادة».

- «أرأيت؟ لكي تعرف تأثير الزحام».
- «لكنني لم أقلع لهذا السبب».
- «وماذا إذن؟»
- «أصبحت أجد أنه إهدار للوقت أن أجلس بمفردي في الطريق ساعتين.. فعزمت أن ألتقي يوميا بشخص جديد أجالسه وأتحدث معه».

تصدح حنان ماضي من راديو السيارة «وكان وكان وكان».. يمد جلال يده ويدير القرص الصغير المسؤول عن رفع مستوى الصوت، تزداد حيرة السائق فيقول: «لم أفهم.. أنت تدفع لي لمجرد ألا تشعر بالوحدة في الطريق»، يبتسم جلال ويكمل: «لا، أنا أدفع أيضا لكي أسمع أغنيات حلوة.. هل تسمح لي بالبقاء قليلا حتى تنتهي تلك الأغنية»

يوافق السائق، وينزل من السيارة متأملا حركة الشارع مشعلا سيجارته الأثيرة، بينما يضبط جلال جلسته في الكرسي بيده فيجعله مائلا في وضع استرخاء، تاركا حنان ماضي تشدو عن آخر الكون الذي سافرت له وهي في نفس المكان.

(٦)

الشمس توشك على الغروب، تلقي بحمرتها على شواهد القبور، تتضافر تلك الحمرة مع ألوان البالونات البرتقالية التي يحملها جلال مع باقة الورود الزرقاء التي اختاراها، يقطع طريقه بتؤدة وهدوء إلى القبر المنشود بينما تتلصص سيدة من خلف باب أحد الأحواش، يركض طفل ناظرا إلى البالونات داخل أحد الأحواش ويبدو أنه سيخبر أحدا عما رآه.

يقف جلال أمام الشاهد المقصود، يفلت بيديه البالونات التي ترتفع قليلا ثم تستقر على ارتفاع الحيط المشدود بفعل الثقل المعدني المشدود في طرفه الآخر، يخرج رجل مقابر من أحد الأحواش ممسكا بشطيرة جبن، يلوكها ويترجل في اتجاه جلال، ويبدأ في مص أصابعه من بقايا الجبن العالق محدثا صوتا مرتفعا.

يباغته رجل المقابر محاولا فتح نافذة للحديث: «تعيش وتفتكر يا باشمهندس».

- «حياتك الباقية يا ..»

- «بسيوني».

- «حياتك الباقية يا بسيوني»؟

- «هل أحضر لك كرسيا لتجلس؟»

يومئ جلال برأسه رافضا وعيناه ماتزال عالقة على شاهد القبر، يصيح بسيوني في فتاة صغيرة: «يا بت يا دلال.. فوطة للباشمهندس لكي ينظف قميصه»، تتحرك عينا جلال لأول مرة تجاه بسيوني الذي يشير إلى أن باقة

قميصه بها بقعة، يدرك بسيوني أن جلال لا يريد، لكنه يستمر في محاولته لخلق حديث قد يدفعه للحصول على بقشيش عطية من الرجل المكلوم، يميل بجذعه محاولا قراءة المكتوب على شاهد القبر، يستقر اسم «عائشة محسن عبد التواب» تحت آية قرآنية، يقرأه بصوت مرتفع ويحاول أن يبدو متأثرا، ويقول بنفاق واجب: «أكيد المرحومة كانت طيبة أطفال»، يرد محمود باقتضاب وقد ترقرقت دمعة داخل عينيه جعلت اللون الأحمر للغروب غنائما، يقول: «لا»، فيستمر بسيوني في تخميناته: «هي إذن مدرسة حضانة أطفال.. حاكم مدرسات الحضانة كده»، يقول جلال بهدوء «لا»، ويكمل وهو يضع الزهور بجانب قبرها استعدادا للرحيل: «لكنها كانت مؤمنة أن الروح تطير إلى السماء في بالونات هيليوم».

(٧)

يضبط جلال كرسيا في الحلقة الدائرية التي يعدها في منزله، ينظر إليها، يخرج زهور فل صغيرة ويضعها في طبق كرستالي صغير في منتصف الدائرة لتلقي رائحة هادئة، بفارق لا يتعدى دقائق يصل الحضور، ثلاثة رجال وامرأتان، جميعهم في نهاية العقد الرابع والخامس، يبدو أن بعضهم يعرف الآخر، والبعض الآخر جديد على المكان.

يقول جلال مداعبا هاني: «تبدو مكسوفا من المكان».

هاني: «أبدا».

جلال: «جرى العرف أن يختار أحدثنا الموسيقى التي ستدار في المكان أثناء الحديث».

هاني: «اللي تشوفه حضرتك».

جلال: «ألم أقل لك أنك مكسوف.. أرىٰ أن نسمع هذه المرأة نجاة».

سميرة: «ياه.. ونبدأ بـ (لا تكذبي)».

مختار: «ومن فينا سيكذب؟»

يتضاحكون.. ويتجه جلال إلىٰ جهاز الموسيقىٰ المنزلية، يضبط الصوت ويختار من ذاكرة الجهاز أغنيات نجاة تلقائيا ويتخذ مكانه علىٰ أحد مقاعد الدائرة في مواجهة فاطمة، التي تقول دون أن يسألها أحد: «أتعرفون.. أنا أحب فيلم (٧ أيام في الجنة)».

يلتقط جلال خيط الحديث ويسألها أن تسترسل بعبارته: «وبعدين يا فاطمة..»

تتنهد فاطمة وتقول: «وبعدين.. الفيلم يخلص كل مرة ولا يتبقىٰ في ذاكرتي سوىٰ جملة نجاة الحنونة (فيها إيه الدنيا إلا إنت.. واللي حبيته في حياتي هو انت)».

يقول جلال في مزيج بين السؤال والإقرار: «وبتفضل الجنة».

يبتسم موريس علىٰ ذكر الجنة ويقول: «بتفضل.. في خيالنا فقط.. الصورة البريئة التي كوناها في مخيلاتنا ونحن أطفال».

تسأل فاطمة بتخوف وهي تتحاشىٰ النظر إلىٰ موريس: «وهل سيدخل أستاذ موريس الجنة؟»

يتوتر الجو فتحاول أن تتدارك ما تقول: «أقصد أنه يعاني مثلنا تماما.. تهاجمه النوبات حتىٰ تتفتت عظامه، وإبر المرضات تخترق أوردته حتىٰ تهرب عروقه وكأنها ترفض أن يكمل علىٰ نفس المنوال».

يصمت الجميع وكأنهم يبحثون عن إجابة للسؤال ويتمتم موريس قائلا: «يا عَالم» بينما يقول جلال ضاحكا: «موريس سيدخل جنة المسيحيين».

يتضاحك الجميع مرة أخرىٰ فيقول هاني: «لماذا لا تصف لنا جنة المسيحيين يا موريس؟»

يقول موريس وهو ينظر في عيون الجميع وقد بدا الاهتمام عليهم: «بها صحبة.. كل ما أعرفه أن بها صحبة كالتي تجمعنا الآن».

تداعبه سميرة قائلة: «انت ناقص تقول إن فيها صوت نجاة».

يسرح موريس قليلا ويقول: «حين كنت صغيرا كانت صورة الجنة تتلخص عندي في شجرة كريسماس ضخمة وأن الروح تخرج في علبة هدايا ملفوفة بشريط أحمر زاهٍ.. حين أصبحت شابا وأخذتني الحياة تاهت صورة شجرة الكريسماس من بالي.. هذه الأيام فقط تراودني الصورة القديمة للجنة».

يسأله مختار محاولا تغيير الموضوع: «ألم تمل من شجر الكريسماس طوال الشهر الماضي».

ينظر موريس تجاه جلال ويسأل: «هل تعتقد أنني سأدرك الكريسماس القادم؟»

يبتسم جلال قائلا: «لا تحاول خداعي.. أنت تفكر في الكريسماس القادم حتىٰ تتذوق الديك الرومي الذي وعدتنا سميرة بإعداده منذ عرفناها».

تقول سميرة: «واحنا فيها.. وعد.. سأجهز لك ديكا روميا في عيد الميلاد القادم»، ثم تصمت قليلا وتكمل: «أو لو عاد مصطفىٰ من بعثته.. حلاوة رجوعه».

يصمت جلال بعد ما تتشابك خيوط الحديث بين الجميع ويكتفي بالتأمل، يصمت ويتأمل الوجوه، يتنهد في الوقت الذي تشدو نجاة بـ «يا مسافر وحدك».

(٨)

يقف جلال في مشتل الزهور ويقلب نظره بين الزنابق والورود البلدي التي تعج بالمكان فلا يجد غايته، يقترب من البائع ويسأله: «يا منتصر، هل أجد عندك شجرة كريسماس؟»، يتعجب منتصر: «كريسماس!! نحن في نهاية يناير، حتى أغلب المشاتل التي أعرفها باعت مخزونها.. كل سنة وأنت طيب».

يقول جلال بطريقة آمرة: «اتصرف.. لن تفقد الحيلة في أن تجد شجرة»، يتذكر منتصر ويقول: «انتظر.. عندي شجرة صغيرة لكنني أتوقع ألا تعجبك»، يتحرك خارج بوابة المشتل ويعود حاملا إياها من الخارج فينظر لها جلال بعدم رضا، يقول منتصر بصيغة العارف بتفضيلات زبائنه: «قلت لك إنها لن تعجبك».

يضعها من يده فيقترب منها جلال ويقول له وهو يشير بيده ليقارن: «أريد شجرة كريسماس كبيرة.. في هذا الطول تقريبا.. ابحث وستجد واحدة هنا أو هناك».

(٩)

ينظر جلال في ساعته، تأخر عن موعد نومه لكنه غير منزعج لأنه وجد غايته، ينظر إلى شجرة الكريسماس الراقدة على الأريكة الخلفية لسيارة الأجرة، ويشعر برضا، يهتزان بفعل مطب، فيقول للسائق: «قلل من سرعتك حتى لا ينكسر جذع الشجرة»، يجيب السائق: «خليها على الله يا بيه.. المهم بس ألا توسخ الشجرة العفش»، يربت جلال على كتف السائق ويطمئنه أنه سيراضيه بمبلغ إضافي.

تستوقف لجنة مرورية في شارع النصر السيارة، يميل أمين شرطة تجاه السائق بينما يقف أحد الضباط ملاصقا له، يسأل الأمين على رخصة القيادة فيخرجها السائق بينما يسأله الضابط وهو يتناول الرخصة: «وما الذي معكما في الخلف؟»، يحاول السائق أن يكسر الجليد ويقول: «شجرة بانجو يا باشا».

تتغير ملامح الضابط الذي لم يتقبل دعابة السائق ويقول: «انت هتهزر معايا يالا.. طب ناولي رخصة عربيتك.. وبطاقة الأستاذ».

يخرج جلال بطاقته فيقرأ الضابط بيانتها بصوت عال: «وما الذي يفعله أستاذ دكتور ورئيس قسم الدم في مستشفى زايد مع سائق في هذا الوقت؟»

يهم بالإجابة في الوقت الذي يناول السائق الضابط ورقة، فيحتد وكأنه وجد ضالته: «وكمان وصل.. ورخص العربية مسحوبة.. اركن على جنب.. انزلولي»، ثم يوجه كلامه إلى رجاله: «فتش لي السيارة يا أمين محمد».

يترجلان، بينما يفتح الأمين باب السيارة الخلفية ويبدأ في جر الشجرة

من جهتها العلوية حيث تتقطع أغصانها في يده فيعيد الكرة لمحاولة جذبها خارجا، يستثير المشهد جلال الذي يركض تجاه الأمين ويدفعه في محاولة للحفاظ على الشجرة، يسقط الأمين فيشتبك عسكريان مع جلال ويبدآن في ضربه وسط جلبة سريعة فيما يحاول الضابط أن يفهم ما يحدث أو يوقفه.

(١٠)

لم تكن حركته وهو يخرج من بوابة قسم الشرطة سهلة، يبدو أن ركلة أو لكمة أصابت قدمه اليسرى، يحاول أن يلحق بـ «نادر» قائلا: «أشكرك يا نادر.. أعلم أنني أزعجتك في هذا الوقت المتأخر».

يتحرك نادر دون رد، فيقول جلال: «أرجو أن ترد علي عندما أتحدث..»

يلتفت نادر متعصبا: «ويم أرد؟!.. لولا أنك أخي الكبير وأنا أحترم سنك لقلت إنك جننت.. ليس من المعقول أن أجدك كل عدة أيام عالقا في مشكلة مع أطفال في المقابر لأنك ذهبت إلى هناك حاملا فستان فرح.. أو أي شئ آخر من الأمور الفارغة والمواقف المشبوهة التي توقع نفسك فيها».

بهدوء يحاول أن يقول: «نادر أنت تعرف..»

يقاطعه نادر: «لا.. لا أعرف.. ولم أقتنع يوما.. كل يوم يموت مليون شخص والدنيا تتحرك بشكل اعتيادي.. كل لحظة ألف شخص يبطلعوا في الروح».

- «لكنك لا تكون أنت اللي طلعت روحهم».

- «أيضا ليس من المعقول أن تعيش في قبر كل شخص بكى أمامك».

- «ولو لا تقول إنني أعيش في جنتهم؟»

- «الكلام معك لم يعد مجديا.. هل ستأتي معي؟»

يشير له جلال: «ما انت عارف»، فيتبرم نادر ويقول: «تاكسيات تاني!»، يستوقفه جلال قبل أن يرحل ويسأله: «ألن نستطيع أن نخرج الشجرة التي صادروها»، ينظر له نادر نظرة ثاقبة ويتركه ويرحل.

(١١)

مسجيا على ظهره ينتظر موريس دخول الطبيب عليه، حين شاهد جلال لأول مرة في بالطو أبيض وحلة سوداء من تحته، نظر له حتى يسمع النتيجة، لم يسأله، فقط نظر له، وقع الصمت يجبرك أن تتكلم دائما، لا يعتاد البشر أن يطول الصمت بينهما خاصة وإن كانت هناك أمور معلقة، يشعر جلال بثقل الثواني عليه، يقولها بصوت متهدج محاولا أن يقلل ذلك مساحة الصمت بين كلماته: «لوكيميا.. سرطان الدم»، ثم يضيف الجملة التي تظل عالقة في مخيلته كثيرا وترتبط بتعبيرات وجوه من واجههم بها: «لا أدري كيف أقولها لك.. لكن ما تبقى لم يعد كثيرا».

(١٢)

آثار الضرب والخدوش ما تزال في وجهه رغم مرور عدة أيام منذ حدثت معركة كمين الشرطة، الجلد لم يعد يلتئم كما كان في شبابه، مثل الكثير من الجروح التي لا تلتئم بسهولة بمرور الزمن، يشعر بألم في ساقه، يتحامل على

نفسه حتى يصل إلى شاهد قبر «موريس فوزي عبد المسيح»، حيث يضع شجرة الكريسماس من يده، يسأل نفسه عن التعب الذي كان سيشعر به لو كانت معه شجرة الكريسماس الكبيرة، يحاول أن يبدي إعجابا بالشجرة التي لم تعجبه من قبل، يقنع نفسه أن موريس سيحبها على صغرها، يميل بجوار الإصيص ويضع علبة هدايا ويحكم ربطها بالشريط الأحمر الذي انفك قليلا أثناء حمله لها مع الشجرة، يضع العلبة في وضع مائل بجوار الشجرة، ويقرأ اسم موريس على الشاهد مرة أخرى.. وينصرف.

العين السحرية

(١)

يطاوعه جفناه المتخاذلان أخيرا على النهوض، يتفرس وجوها قليلة تملأ غرفته الفارهة المملتئة بورود تفوق الأدوية والمحاليل، يدقق في الوجوه التي تفاوتت تعبيراتها بين الفرح المترقب، والتوجس التام من نهوضه، يعاود النظر في الأربعة وجوه التي تتواجد معه في الغرفة دون أن ترسل ملامحهم إلى عقله بأي إشارة تدل على معرفتهم أساسا.

يحاول التخمين.. سيدة في أوائل العقد السادس، مهندمة نحيفة، ذلك النوع من النساء اللاتي تكسبهن التجاعيد على الوجه وقارا وجمالا أرستقراطيا، تخفي عينيها وراء نظارة شمسية ربما لتداري دموعا وانكسارا واضحا تحاول أن تخفيه، تحاول ألا يضيع تلهفها الواضح عليه مظهرها الأرستقراطي وحرصها على ما تبدو عليه أمام الأعين، تبدو أنها الأقرب للرجل على عكس بقية الوجوه التي نظر إليها جيدا، تفحص مقلهم دون أن يعرف منهم شخصا، يبدو أنهم معارف فيما عدا واحدة تبدو كممرضة الغرفة.

ترهقه المحاولة.. تكسر فيه شيئا، الآن يمكنه أن يقنع جفناه بالعودة إلى النوم، لكنه قبل ذلك حرك شفتيه ناطقا بكلمتين فقط يطلب فيهما «كارت معايدة»، قالها بفرنسية يجيدها جيدا «Carte postale» قبل أن يسود التوتر والارتباك الغرفة من الطلب الغريب، تنظر السيدة إلى الممرضة، ويتحرك رجل من الغرفة إلى خارجها، دقائق معدودة حتى تعود الممرضة بكارت معايدة يحتوي صورة سيدة تجلس دون أن نرى وجهها على أحد الكراسي الخشبية وأمامها صور قديمة لأشخاص يبدو أنها عرفتهم في وقت ما أو فقدتهم في وقت آخر.

يتناول بطاقة المعايدة، ويشير بيده طالبا قلما، حينها تقدمت السيدة الأرستقراطية لتفتح درجا مجاورا له لتخرج له قلما فخما نقش عليه اسم «صلاح عزام»، تأمل الاسم المكتوب بحروف لاتينية متشابكة، وخمّن أنه يحمل الاسم نفسه، ارتعشت يده قليلا فضبط نفسه وتحكم في أعصابه وكتب على ظهر بطاقة المعايدة «dans ses yeux» وناولها للسيدة وهو يشعر بتعب، لاحظت تعبه فلم تسأله لمن ينوي أن يرسلها، وأسلم هو جفنيه للنوم مجددا.

حين قام من غفوته بعد عدة ساعات أثناء زيارة الطبيب المعالج، أمسك الطبيب ببطاقة المعايدة وقص على الرجل ما حدث بالإنجليزية، داعيه بأنه لا يعرف الفرنسية لذلك فهو لا يعرف معنى ما كتبه، والحقيقة أن الأمر لم يكن يشغل الطبيب فعليا، ما شغله أكثر في هذا الفعل هو ما صاغه في سؤال للرجل: «لمن كنت تنوي أن ترسل تلك البطاقة؟»، حين نظر له الرجل مليا وهو يحاول أن يتذكر الأمر برمته، مد يده وتفحص كارت المعايدة، ولما عجز عن الإجابة، أرخى جفنيه وعاد إلى نومه مرة أخرى.

(٢)

يقتل الاعتياد كافة المشاعر التقليدية، لذلك لابد أن يكون ظهور دراكولا مفاجئا في أفلام الرعب، حتى لا يقتل اعتيادنا على وجوده في الشاشة مساحة الرهبة من ذلك المجهول الغامض، لكن الاعتياد لم يقتل قلق «ميادة» حين أبغوها أن «الأستاذ» عاد، تعلم جيدا أنه سيكون متعكر المزاج، لذلك تمشى «ميادة» لقاءها الأول بالأستاذ كما اعتادت دائما.

ترتدي «ميادة» قميصا أبيض وبنطالا رصاصيا يجعلها تبدو كفتاة عاملة في إحدى الشركات الكبرى رغم أن عملها كصحفية لم يكن يتطلب كل ذلك، العمل مع الأستاذ هو ما يفرض هذا الوضع، تحرك ظهرها إلى الخلف في محاولة لسماع طقطقات الفقرات قبل أن تنحني لتخرج حذاء أسود بكعب عال لتلبسه، تضع قدمها اليمنى في الحذاء بينما يميل كاحلها الأيسر وهي تحاول أن تضبط حركتها، تتحرك خطوتين وكأنها تتدرب على القيادة بعد فترة انقطاع.

تعرج على الجريدة القومية التي يعمل بها الأستاذ ككاتب متفرغ كنوع من المكافأة والتكريم عن السنوات التي قضاها هناك، تستقل المصعد وسط بعض النظرات المتفحصة من عدد من العاملين بعضهم لا يعرفها جيدا وبعضهم يعرف أنها الذراع الأيمن للأستاذ، تدخل مكتبه، تحضر بعض الأوراق، تبدأ في إعداد البريد الوارد له طوال فترة غيابه الأخيرة، بعض قصاصات المقالات والأخبار التي تتحدث عنه أو تتمنى له الشفاء في رحلته العلاجية، ومقالاته الأسبوعية الثابتة التي كانت ميادة تقتطعها من فصول كتب «الأستاذ» السابقة، بناء على تعليماته، وحتى لا يغيب الأخير عن الصفحة التي اعتاد كتابة مقاله الأسبوعي فيها في أقدم جريدة قومية.

تفتح الدرج الثاني وتخرج قرار تعيينها الذي ينقصه إمضاء الأستاذ، ومكالمة تلفونية لرئيس مجلس الإدارة ليعتمدها ضمن جداول المعينين، تتساءل فيما بينها إن كان الأستاذ سيتذكر وعده لها بالتعيين، ثم تكتشف أن الوقت ليس مناسبا لسؤاله عن ذلك، تعيد الورقة إلى الدرج، وتخرج في اتجاه الباب، قبل أن تعود مرة أخرى لتفتح الدرج وتخرج الورقة لتضعها وسط الأوراق التي تحملها معها، لقد بذلت من أجل تلك الورقة الكثير من الكد والتضحيات التي لا تساوي أن تشعر بخجل أن الوقت ليس مناسبا لتوقيعها.

تخرج إلى الممر المؤدي للمصعد مرة أخرى، حيث يقف «مصطفى» زميلها القديم في قسم التحقيقات، تلقي السلام بتحفظ وكأنها تحاول ألا يفتح «مصطفى» الحوار الذي تتوقعه ويلحظ «مصطفى» ذلك في عينيها فيتلذذ بإلقاء السؤال:

- «هل عاد الأستاذ؟»

- «نوعا ما».

بابتسامة صفراء يقول: «واضح أنك تعانين من ضغط عمل هذه الأيام»، تفهم «ميادة» الدعابة ولا تلوكها، فتهز رأسها أملا في أن يتوقف «مصطفى»، إلا أنه يكمل: «جهزي شيكولاتة النقابة.. كل عاملي المبنى في انتظار حلاوة تعيينك».

بتلهف تسأل: «هل تحددت اللجنة القادمة للقيد؟»

- «بعد أربعة أشهر تقريبا.. هل أنهيتِ ورق التعيين مع الأستاذ».

- «لا، ليس بعد».

- «إذن لا تتأخري».

تنظر «ميادة» إلى المصعد المتأخر وتقول لمصطفى وهي تخطو في اتجاه السلالم: «أنا متأخرة بالفعل، عن إذنك»، لا يترك «مصطفى» فرصة هروبها دون أن يلقي بآخر طلقاته النارية قائلا: «أراك في فرح السيوفي غدا».

تخرج من المؤسسة وتركب سيارتها قاصدة إحدى الفيلات في المنصورية، تشعر بوخز في قدمها فتخلع حذاءها ذا الكعب وتضعه جانبا وتكمل قيادتها للسيارة.

(٣)

Il pleure dans mon coeur

Comme il pleut sur la ville.

Quelle est cette langueur

Qui pénêtre mon coeur?

تملك اللغة الفرنسية ذلك الوقع الموسيقي المحبب في نفس «ميادة» دون أن تجيدها، كلما استمعت إلى أبيات شعر أو محادثة تليفونية للأستاذ مع أحد الكتاب أو الصحفيين أو المسؤولين الفرنسيين تمنت للحظات أن تتعلم تلك اللغة، بخبرها الأستاذ بأنها افتقدت جزءا من السحر بابتعادها عن تلك اللغة، يعتبر الأستاذ الإنجليزية لغة باردة لا تحمل قدرا من المشاعر، يصفها بأنها لغة الرسائل النصية القصيرة على المحمول، لا تحمل أي الكلمات أبعد من معناها المباشر الإخباري، لا ترتفع بك لتصل إلى النسيج الأبيض الساحر المكون للسحاب في الخريف.

يجلس الأستاذ في مكتبه على كرسي القراءة المواجه للشرفة، يطلب ممن حوله أن يعطوه كتابا لـ «بول فرلان» ليقرأ بعض أشعاره، تنظر «ميادة» إلى الزوجة ـ التي تبدي رغبة واضحة في عدم تواجدها ـ لتسألها إن كانت تلبي طلبه أم لا، تهز الزوجة رأسها يأسا وهي تهمس «أقل من دقيقة وسينسى أنه طلب الكتاب من الأساس، لم يتذكر الحوائط أو المنزل رغم أن الطبيب كان يعول على هذا الأمر لتتحسن حالته، لكن لا بأس، اجلبي له الكتاب».

تصعد «ميادة» سلما خشبيا صغيرا موصلا بالمكتبة لتجلب الكتاب من الرف العلوي، تشعر بصعوبة في فعل ذلك بحذائها لكنها تخشى أن تخلع حذاءها في حضرة الأستاذ لما يسببه الأمر من ضيق له، تنظر إليه فتجده يتابعها بعينيه، يخطر في بالها أنه لن يتذكر أنها خلعت الحذاء، فلتتصرف كما يحلو لها الآن، تخلع الحذاء بجوار السلم وتصعد درجتين، تتناول كتاب «بول فرلان»، تهبط وتناوله لزوجة الأستاذ التي تشير برأسها أن تقوم هي بالمهمة بلا حرج، تتقدم «ميادة» وتسلم الكتاب ليد الأستاذ، تلتقي عيناها بعينيه للحظات، ثم تتراجع لتأخذ خطوة خلف الزوجة، تنتظر «ميادة» والزوجة وثلاثة من الخدم والمساعدين الإيماءة القادمة للأستاذ، لكن الأخير يذوب في كتابه الفرنسي، وكأن الرجل يريد تعويضا حسيا عن رحلته العلاجية في ألمانيا التي يكرهها، ويكره لغتها الجافة الصارمة، يرتقي الرجل، يلامس كفاه المجعدان المليئان بالبقع البنية السماء، تزداد أصابعه السبعينية ارتعاشا قليلا وهو يتلو صلاته الشعرية من كتاب «فرلان»، يختار قصيدة طالما سمعتها «ميادة» منه ولم تفهمها، ينهيها وينظر إلى الوجوه أمامه دون أن يدرك أصحابها، إلا أنه يركز نظره إلى «ميادة» ويقول: «أريد حين يحين موعد حسابي يا ميادة، أن يحاسبني الله بالفرنسية».. ثم أردف بهدوء وهو يشير لحذائها: «Ne prenez pas vos chaussures».

(٤)

لم يتوقع أحد أن تفعلها وتحضر فرح «مالك السيوفي»، تتابعها الأعين في فستانها الأحمر الهادئ وهي تشق طريقها وسط الحضور، تتكفئ الشفاه على الآذان في محاولات الشد والجذب بين النمائم المختلفة والتي تنحصر حول قدرتها وجبروتها في حضور حفل الزفاف، بطرف عينيها تدرك «ميادة» أن العيون تتابعها، العيون لا ترحم، ولا تنظر إلى ما تشعر به، لا تلحظ تلك الأعين محاولات تجاسرها، تتخيل ألف مرة كيف كانت نفس العيون ستتابع غيابها لو لم تحضر، نفس الشفاه ستتكفئ على الآذان لتتحسر على انكسارها أو تفريطها في مالك.

تقترب «ميادة» من الكوشة البيضاء المزينة بأزهار اصطناعية، حيث يجلس «مالك» وعروسه يتضاحكان مع مجموعة من المباركين المحيطين بهما، خطواتها تشق الحشود كما شقت عصا موسى البحر تماما فمر بسلام حتى غايته، أما غايتها فلم تكن سهلة، مدت يدها إلى العروس وتمتمت

عبارات المباركة التي لم تُسمع كثيرا بسبب إيقاع أغنية ما لأحمد عدوية، تمد يدها إلى «مالك» بسرعة ودون أن تظهر ارتباكا، بينما بدا الارتباك واضحا على «مالك» نفسه، رغم أنه من دعاها، ربما فعل ذلك ليثبت لنفسه ولها أنه استطاع تجاوز ما كان بينهما حين كانت زميلته في قسم التحقيقات، لكنه لم يتوقع مطلقا أن تقبل دعوته بجدية وتحضر لتواجهه وتلقي بعبارات المباركة، ينعكس ارتباك «مالك» على المحيطين فتسود حالة من الاحتقان المكان لا تزول حتى بعد ذهاب «ميادة» للجلوس على إحدى الطاولات، تحرك أصابعها على الطاولة للتفاعل مع إيقاع الأغنيات التي تملأ المكان، وتخلق تلك الثقة الظاهرة للعيان جدارا زجاجيا يمنع أحدا من الاقتراب منها أو الحديث معها، فقط مشاهدتها من خلف الزجاج كما تتفرس «مانيكان» في أحد المحلات.

(٥)

نولد ونكبر ونشيخ ونمرض ثم نموت، ليقول الجميع بعد ذلك أننا عشنا حياة طبيعية، نقابل فيها وجوها وشخصيات، وتغيب عنا شخصيات أكثر بكثير ممن تكمل معنا الرحلة إلى نهايتها، ننساهم عن عمد، نسقطهم من ذاكرتنا، أو ننساهم دون أن ندري، كما في حالة الأستاذ، الذي بدأ عامه الرابع والسبعين يعاني من أعراض ألزهايمر، ينسى الوجوه، والأسماء، والمواعيد، والكلمات الإنجليزية القليلة التي كان يستخدمها للتعامل مع طبيبه الألماني، ثم ينسى وجه زوجته التي رافقته في الرحلة طول الأشهر الثلاثة الماضية، ينسى كثيرا من تكون، حتى في طريقها من المطار إلى الفيلا، كانت تحتاج إلى أن تذكره دوما بمن تكون، وبمن يعيش معهم في الفيلا من خدم ومساعدين، ذكرته بالجميع إلا «ميادة» التي لم تكن تدري أن مدير المنزل طلبها لتكون في استقبال الأستاذ، شاهدت «ميادة» السيدة وهي تويخ مدير المنزل أنه دعاها، تحاول «ميادة» ألا تلاحظها السيدة وهي تتابع

ذلك المشهد، تحاول أن تنسحب بهدوء، كانت تنتوي ألا تعود للمنزل مرة أخرى بعد خروجها لكن الأستاذ تذكرها دون غيرها، حين أنهى قصيدته خاطب «ميادة» باسمها متمنيا أن ينال حسابا فرنسيا يليق به كصحفي وشاعر ورئيس تحرير سابق لإحدى مطبوعات المؤسسة القومية التي عمل فيها.

تحاول الزوجة أن تجد سببا لذلك فلا تصل لشيء، لم يقنعها أن ميادة الشابة الثلاثينية والصحفية التي بدأت حياتها في المؤسسة ذاتها من عشر سنوات كانت ملازمة لزوجها في ثلاث أرباع المدة التي قضتها هناك، منذ أن اكتشفها الأستاذ في مطبوعته كمحررة تحقيقات، إلا أنها تركت كل ذلك منذ ترك الأستاذ رئاسة التحرير وأفردت له المؤسسة مكتبا تكريما لدوره، فأصر أن ترافقه «ميادة» كمساعدة ومديرة للمكتب بجانب دورها كصحفية مهتمة بالشأن الثقافي، وهو عمل مكتبي مريح نوعا، ترى الزوجة أن السنوات الثانية الأخيرة لا تقارن بخمسين عاما قضتها في رفقة الرجل، قضت معه أغلب أوقاته بحكم طبيعته الجادة البعيدة عن مصاحبة السيدات أو مواعدتهن، تتخلل السيدة عن طابعها الأرستقراطي بفضل فضول الأنثى الذي لا يسقط بالتقادم، وتميل تجاه «ميادة» وتسألها عن تفسيرها لتعرف «الأستاذ» عليها، تجيبها «ميادة» بهدوء وهي تحدق في عيني الرجل: «من عيني.. عيون البشر لا تشيخ».

(٦)

تطرق باب «عباس مسعود» وتدلف في هدوء، فيبتسم ابتسامة واسعة مرحبا بها، ويشير بيده إلى الكرسي المواجه لمكتبه لتجلس، ويقول: «ثوانٍ، أنتهي من مراجعة مقالي وأكون قادرا على التحدث إليك»، تستغل «ميادة» تلك الدقائق في تفحص مكتب «عباس» الذي يقل نسبيا عن مكتب الأستاذ لكنه مايزال يتمتع برونق كاتب خمسيني في مؤسستها الصحفية، «عباس» نفسه مختلف عن الأستاذ، اهتم بصباغة شعره بلون أسود قاتم حتى يقلل من مظهره عقدا كاملا، ربما نجح في ذلك في صورته المصاحبة للمقال لكن الحقيقة عن قرب تظهر بوضوح آثار الصبغة والتجاعيد.

ما إن ينتهي مما يفعل حتى يسألها: «وماذا تفعلين الآن في غياب الأستاذ؟»

- «ما أفعله دائما، أجتزئ مقالاته من كتبه القديمة، وأزوره على فترات متباعدة متمنية له الشفاء.. سأمر عليه اليوم».

- «مسكين.. سأحاول زيارته.. كان لي صديق مصابا بالزهايمر

ولم يصمد أكثر من ٣ أو ٤ شهور ثم مات».

- «البقاء لله».

- «وما خططك بعد الأستاذ؟»

- «سأقابل عددا من الأصدقاء».

- «لا أقصد ما خططك بعد الأستاذ اليوم، لكنني أقصد عموما».

- «هل لديك خطط يمكنك أن تطرحها علي؟»

- «يمكنك أن تلتحقي بالعمل في مكتبي من الغد.. ألستِ معينة في المؤسسة؟»

- «ليس بعد».

- «ياه.. فرصة عظيمة، إذن سأعينك خلال شهر من بدأ العمل معي مباشرة».

- «لكن..»

- «انظري للأمر بطريقة معكوسة.. هل كان صلاح عزام ليفكر في بقائك ثانية لو أن الزهايمر قد أصابك أنت؟»

- «أعتقد بحكم سنوات خدمتي، وحفاظا على مظهره الاجتماعي لكان الأستاذ فعلها».

- «إنك لا تعرفين الرجل إلى الآن.. الحي أبقى من الميت.. وأنا أطرح عليك الأمر لمصلحتك فقط.. وحتى أزيل عنك الحرج، سأتركك تنهين عملك مع الأستاذ بحلول نهاية الشهر.. أعتقد أن أسبوعين كافيان لذلك».

- «أشكرك.. سأوافيك قريبا بالمستجدات».

(٧)

عيون البشر لا تشيخ.. الجملة التي حفظتها ميادة من أستاذها عن ظهر قلب، كما كان الأستاذ يفعل في سنواته الأخيرة حين كان ينهي مقاله أو عمله فيلتفت لميادة ليعطيها خبرته في الحياة، وكأنه أراد توريث تلك الرحلة والأفكار الخاصة بالحياة والبشر إلى نجل لم يمنحه القدر إنجابه، كان يقولها لميادة كثيرا، لا تذكر المرة الأولى تحديدا لكنه دائما كان يقولها بعد مقابلة صحفي آخر أو سائل أو صاحب طلب، كان يصرف البعض دون سبب ويتحمس للبعض دون سبب في نظر «ميادة»، لكنه كان يخفي حكمته التي باح بها في سنواته الأخيرة لابنته المختارة: «كانت عيونه صادقة.. أو كانت عيونها تكذب»، لذلك كانت «ميادة» تخاف كل مرة لقاءه، لأن الأستاذ يمعن النظر في عيني من يحدثه، يصوب حدقتيه بطريقة قد لا تكون مريحة لمن أمامه، يقوم بمسح البؤبؤين بعينيه، ويصر ألا يشيح بنظره، لذلك أيضا تعجب الجميع أن يصاب الأستاذ تحديدا بـ «الزهايمر»، لأنه كان يمتلك

ذاكرة حاضرة وذهنا لا ينسى، قديما.. حين يدخل زميل هاجر إلى الخليج منذ ثلاثين عاما مكتبه في المؤسسة، يتذكره على الفور ويتذكر كل ما كان يربطهما معا، رغم أن الزميل تغير كليا، أصابته أذرع الزمن في جسده وصلعته وجلده وصوته وعافيته، لا يتذكر الزميل الخمسيني كل تلك الأمور على عكس الأستاذ الذي يسبقه بعقدين، يخرج من المكتب فتحاول «ميادة» أن تكسر الجليد وتتندر بالمقولة المنتشرة في المؤسسة «الأستاذ لا ينسى»، فيجيبها الأستاذ عن سؤال لم تطرحه: «لأنني نظرت إلى عيني الرجل، العيون لا تشيخ ولا تتغير، قد تتغير دنيا بالكامل بفعل الزمن أو بفعل البوتكس، لكن مهما اختلفت ملامح وجهك أو هيئتك، تظل عيناك كما هي».

تدخل «ميادة» مكتبه بالفيلا.. حيث يجالسه رجل يختفي وراء نظارة شمسية سبعينية عريضة، إلا أنها استطاعت أن تعرف أنه «عواد الحسيني» وزير الإعلام الأسبق، والذي كانت تربطه صداقة قوية بالأستاذ في إحدى مراحل حياته سرعان ما تحولت إلى خلاف تقليدي بين الكاتب والسياسي، نشر خلالها الأستاذ عدة مقالات عن فساد «الحسيني» الإداري والمالي في الوزارة، لم يكن مختلسا لكنه كان يغدق من عطايا الدولة لمحاسبيه وأتباعه، وهكذا خرج الحسيني من الحياة السياسية، ثم أتبعها بالحياة العامة، إلا عددا قليلا من المناسبات الاجتماعية كالتعازي والاطمئنان على صحة الآخرين، حين دلفت «ميادة» إلى الداخل لم تقاطع شيئا بينهما إذ كان الأستاذ صامتا وبدا عليه الشرود، تهمس الزوجة التي تتعقب أثرها متبرمة: «لا أدري لماذا جاء؟ دون استئذان وكأن الجميع نسي أصول الزيارة»، ثم تضيف: «الأنكى أنه لم يتعرف عليه، ظلا على تلك الحال من الصمت منذ جلسا».

تقترب «ميادة» من الأستاذ فحدق في عينيها وعرفها وسط تعجب من زوجته، تناوله المراسلات فيبدو ذهنه حيويا، ينظر في الخطابات ويسأل عن

قلمه، تقترب الزوجة وتناوله القلم، بينما يهم «الحسيني» بالانصراف، فلا تحاول الزوجة إبقاءه، تتعجب «ميادة» من موقف السيدة التي عادة ما تلقي عبارات ضيافة لإبقاء ضيفها لوقت أطول، لكنها تتذكر أن السيدة لم تعد تفضل زائرين كما فعلت معها مؤخرا، ولولا تعرف الأستاذ عليها لما دعتها مرة ثانية إلى المنزل، يتعلل «الحسيني» بموعد وينصرف، تتابعه «ميادة» بعينيها وتنشغل عن الأستاذ الذي بدأ في وضع خطوط على الأوراق، يردد بعض السباب الفرنسي على ما يعجبه، ثم يأخذ «ميادة» من متابعتها للزائر بسؤالها: «هل تزوج مالك؟»

تهز رأسها بالإيجاب، فينظر في مقلتيها ويكمل: «وحضرت الفرح؟»، تبتسم ابتسامة خفيفة فينهض من كرسيه ويربت على كتفها وهو يقول: «راهنت نفسي أنك ستفعلينها.. ابنتي بالفعل»، ثم يستغرق في نوبة ضحك، يسعل بعدها بعض الشيء، تذكرها ضحكاته بالعديد من المواقف التي توقع منها أن تتخذ الموقف الذي كان سيختاره لو كان مكانها، أو ستختاره هي لو كانت مكانه، يعلق بنفس العبارة دائما: «أنها ابنته التي لم يلدها»، ذات مرة سألته عقب تعليقه: «ولماذا لم تنجب لي أشقاء؟»، ورغم أنها كانت تقصد أن تسأله عن سبب عدم تبنيه لآخرين مهنيا، إلا أن الأستاذ فهم السؤال بمعناه المباشر دون تورية فأجاب بأن زوجته لا تستطيع الإنجاب، بعدها تكرر الأمر كثيرا، يناديها بالابنة كلما أشاد باختياراتها، إلى أن وصل لما هو فيه الآن، ينسى ما ينساه ويسألها عما فعلته مع «مالك»، يجلس على أريكته ويتناول جهاز التحكم بالتلفزيون المعلق على الحائط داخل مكتبته الضخمة، يرفع صوت النشرة التي تذيع بعض المظاهرات الواقعة في القاهرة، يسأل «ميادة»: «ما سبب المظاهرات هذه المرة؟»

- «لا أعرف يا أستاذ».

- «المكتب غيرك.. أين ذهبت «ميادة» التي تحمل كاميرتها الصغيرة رغم أنها لا تجيد التصوير وتتجه إلى قلب الاشتباكات لتكتب تقريرا وافيا عن الحدث؟»

- «رحلت إلى جوارك منذ تركت أنت المطبوعة، وتركت هي قسم التحقيقات لتكون في رفقتك بالمكتب».

- «وكأنني لا أعرف.. تقصين علي الأمر كأنك تخبرين طرفا ثالثا، مثلما تخبر المسرحيات الهزيلة المشاهدين بما يحدث، يرن التليفون مع رفع الستار ويرد الخادم ليحكي قصة المسرحية كلها».

- «لا، أخبرك بذلك لأنك ربما نسيته».

يتعصب «صلاح» ويحتد: «أنا لا أنسى يا ميادة.. الأستاذ لا ينسى»، ينهض ويتجه إلى كرسيه الهزاز ويسألها عن كتاب «بول فرلان»، وهو ما فهمت منه «ميادة» أن اللقاء قد انتهى، تشعر «ميادة» بالحنق لأنها أضاعت فرصة توقيع أمر تعيينها بإفساد الحوار وإخراج الوجه العصبي له، تنظر إليه ثم تنظر إلى التليفزيون حيث تستمر المظاهرة.

(٨)

تصطحبها الزوجة إلى الخارج وتسألها السؤال الذي كتمته لمدة أيام منذ اللقاء الأول.. «ولماذا عيناك بالتحديد؟»

تعجز «ميادة» عن إعطاء إجابة شافية، لكنها تقترب من وجه زوجة الأستاذ، تحدق في مقلتيها كما يفعل أستاذها وتقول في هدوء: «إن كان السؤال لماذا تعرف عليّ من عيني بالتحديد فلا أملك إجابة، أما إذا كان سؤالك ولماذا ليست عينيك، فربما لأنك ترتدين عدسات لاصقة».

تشعر «ميادة» أن طريقتها رغم هدوئها وقحة بعض الشيء، تفكر للحظات أن الأستاذ نجح في استفزازها، يضايقها ألا تصل لما تريد، هكذا اعتادت.

تسألها الزوجة عن أقرب موعد يمكنها أن تزور الأستاذ فيه لأنه يتحسن بوجودها، تحاول «ميادة» أن تمهد للهروب من منزل الرجل الزهايمري،

تقول إن الجريدة ربما تنتدبها لعمل آخر خلال الشهر القادم وأنها تحتاج لإعداد أوراقها.

تطرح عليها السيدة عرضها الأخير: «الأطباء قالوا إن الأستاذ يحتاج لمشاهدة أماكن قديمة أو شخصيات يعرفها لتتحسن حالته، وقد كنت بجواره خلال تلك السنوات ويمكنك أن تذكريه بالأماكن والشخوص.. أريدك أن ترافقنا خلال الأشهر القادمة».

- «لن أستطيع فأنا موظفة في المؤسسة ولن أجد الوقت لذلك».

تتخلى السيدة عن وقارها وترجو الفتاة: «أرجوك! لأجل الذكريات الجيدة التي تحملينها للأستاذ».

تشعر «ميادة» بالحرج وتحاول أن تبحث عن باب الهروب، تقول: «لن أستطيع لأنني سألتزم بعمل آخر في المؤسسة وسأخبر الأستاذ متى يحين الأمر.. لكنني سأحاول».

تخرج وهي تحمل في ذهنها ورقة التعيين، تفاضل بين أن تبقى مع الأستاذ الذي قد لا يتذكر تعيينها التي ضحت فيه بمجالها كصحفية تحقيقات من أجل أن تنشده، وبين عرض «عباس مسعود» الذي لا تعرفه جيدا وتخشى أن تنتقل إلى مكتبه فتختلف معه أو لا تشعر بالارتياح فيضيع عليها فرصة التعيين مع الأستاذ.

(٩)

أسهل طريقة للهروب هي الهروب من أعين الآخرين، خاصة وأنك تشعر بأنك ترتكب خطأ ما، أو ما ترفضه الجموع المحيطة، لذلك يلتقي العشاق الراغبون في التلذذ بمتعة جنسية مختطفة في أماكن أبعد ما تكون عن الأعين، أو من يحاول أن يقبل حبيبته لأول مرة في سن المراهقة، ولذلك اختارت «ميادة» أحد كافيهات المعادي المظلمة نوعا، والتي تعتمد على إضاءة الشموع لتلقى «مالك»، لأنها تخشى أن يراها أحد معه رغم أن مقابلتهما رسمية وعادية، ولأنها أيضا توكل للظلال وعتم المكان مهمة ألا تفضحها عينيها أمامه، تطلب فراولة من النادل، بينما يسأل «مالك» عن شاي وأعواد من النعناع، يخبره النادل أن كل الشاي بالنعناع في أظرف الشاي المعلبة ولا توجد أعواد نعناع في المكان. لا يحب «مالك» النعناع المعلب المخلوط بالشاي، لذلك تراجع وطلب شايا فقط.

تسأل «مالك» أسئلة روتينية عن أحواله بعد الزواج فيجيبها أنه بخير،

ثم يضع حدا لتلك المقابلة الغامضة فيسألها: «لماذا؟»

تصمت «ميادة» وتكرر عبارته: «لماذا!!»

ـ «أمور كثيرة أحتاج أن أسألك عنها بـ لماذا.. لماذا حضرت الفرح.. لماذا طلبتِ لقائي يا ميادة.. ما الذي تحملينه خلفك؟»

ـ «أود استشارتك في أمر.. أولسنا أصدقاء؟»

ـ «لسنا أصدقاء يا ميادة وأنت تعرفين ذلك.. منذ خرجتِ من المطبوعة وتخليتِ عن حلمك الصحفي نظير النقابة والتعيين ونحن في سبل مختلفة».

ـ «الصحفيون يحتاجون تعديل مسار».

ـ «ومسارك الصحيح هو صحافة التحقيقات.. العمل الميداني و..»

ـ «ما دمنا لم نعد أصدقاء.. فلننه مشروبنا وننهض».

يسود الصمت للحظة، يخرج «مالك» سيجارة ويشعلها فتقلل من توتره ثم يسأل:

ـ «ولماذا تستشيرنني أنا؟ دائما ما تستشيرين الأستاذ».

ـ «لأن الاستشارة بخصوص الأستاذ».

ـ «امم.. تفكرين في ترك العمل معه؟»

ـ «كيف عرفت؟»

يضحك «مالك» ضحكة موحية بمعنى أن كل تلك السنوات بجوارها جعلته يعرفها جيدا، فتوقن هي الإجابة ثم تنتظر رده فيسألها:

ـ «هل تفكرين في العودة للعمل بالتحقيقات؟»

- «لا طبعا».

- «ماتزالين ميادة التي أعرفها».

- «أتدري؟! بالأمس شاهدت مظاهرة في التلفزيون لم أعرف سببها.. شعرت بحنين للحظات للعمل الميداني».

- «العمل الميداني.. هو ما كنتِ عليه يا ميادة قبل أن ترتدي ملابس كلاسيكية كل يوم لأن بروتوكول العمل مع الأستاذ يفرض ذلك.. ما علينا.. ما السبل المطروحة؟»

- «عباس مسعود».

- «بصباص.. عيناه زائغتان على عكس الأستاذ وهو ما لن يلقى هوى لديك على المستوى الشخصي، أما على المستوى المهني فأنت ستمارسين نفس الدور.. سكرتيرة متنكرة في ثوب صحفية».

- «وما العمل؟»

- «أنت اتخذتِ قرارك يا ميادة.. أنت هنا لست لاستشارتي ولكن لإراحة ضميرك، تخشين أن يتهمك الناس بقلة الأصل إذا ما تركتِ الأستاذ الذي تبناك مهنيا وأفسدك أيضا، تخشين أن يحتقروك إذا ما قبلت العمل لدى عباس مسعود لأنك مثلي تعلمين أنه بصباص، تخشين ان تنامي ليلا وأنت تشعرين بنوع من تأنيب الضمير».

- «.....»

- «لكنني لن أريح ضميرك يا ميادة، سأقول لك ماقلته مسبقا حين انفصلنا.. أنت تشترين نفسك، ونفسك فقط، لذلك لا تتوقعي أن يشتري الآخرون نفسك، ليس لديهم مبرر لذلك».

- «...»

ينهض وهو يقول: «في المرة القادمة ـ إذا كانت هناك مرات قادمة بيننا ـ لا تختاري كافيه مظلما، فلازلت أستطيع رؤية عينيك رغم كل ذلك».

(١٠)

توقعت «ميادة» أن تدخل الزوجة الأرستقراطية بنفسها حاملة صينية الشاي بعد أن خلعت عدساتها اللاصقة البنية اللامعة لتكشف وراءهما عينين أقل لمعانا بفعل الزمن، تخدم الرجل بنفسها لأنه لم يتذكر أي من خدمه، لأن وقته منعه من الانهماك في اكتشاف أعينهم، توقعت بعدما أرشدت السيدة إلى علاج زوجها أن تجدها تصب الشاي لها لأنها ساهمت في أن يتعرف عليها أخيرا، وينادي باسمها، ويقبل يدها بعد أن تصب الشاي، ويذكرها بالشاي الذي شرباه سويا في كوخ بـ «الغلبين» حين سافرا منذ ٤ عقود، تجهد الزوجة في تذكر تلك الرحلة تحديدا، فيداعبها بأنها أصبحت عجوزا تنسى ذكرياتها الحلوة، توقعت أن يعلق كأنه يقرأ واقعا أو يضع مانشيت باللون الأحمر للصحف الصادرة غدا «الأستاذ لا ينسى».

لكنها لم تجد شيئا مما توقعته، لم تتخل السيدة الأرستقراطية عن عدساتها اللاصقة، احتفظت بذلك الستار على عينيها كما تحتفظ بستار يمنع الأستاذ

عمن يعرفونه، رغم أنها طلبت منها أن ترافقه ليقابل أشخاصا كانت بينهم وبينه ذكريات، تتعجب موقفها المتناقض، ترى ذلك الستار الذي لم يجعل أحدا يزوره منذ عاد إلا «الحسيني» الذي رأته قبل أيام، وكأن السيدة تجد هيبتها وأرستقراطيتها في الحفاظ على صورة الرجل قويا ومتماسكا وألا يبدو أمام الأعين في صورة الضعيف والخانع.

لذلك شعرت «ميادة» أن اقتراحها باصطحاب الأستاذ إلى مسقط رأسه في السويس لم يلاق ترحيبا من السيدة، تعللت أولا بوضعه الصحي الذي لن يسمح بتلك الزيارة، إلا أن إصرار «ميادة» كان قويا، استطاعت «ميادة» أن تذكر السيدة بأن أيامها مع الأستاذ أصبحت معدودة وأنها تود أن تعيده إلى هناك ليس للتعرف على مسقط رأسه، لأن الأستاذ انشغل في الأيام الأخيرة ببناء مركز طبي وتعليمي وديني في مدينة السويس يحمل اسمه، اعتبره هدية منه لتلك المدينة التي قدمت له الكثير.. وفي النهاية ومع إصرار «ميادة» تقرر السيدة ألا تصطحبها دون إبداء أسباب، فيتأكد لدى «ميادة» أن السيدة لا تريد أن تظهر كزوجة لرجل ضعيف، تتهمها في نفسها بالأنانية، والتي تبخل على زوجها بفرصه لتذكر ماضيه، لكنها يبدو أنها طلبت منها أن تفعل هي ذلك من باب الشفقة أو إراحة الضمير، يقودها الاستنتاج إلى احتقار السيدة لكنها تحاول أن تطمئن السيدة فتقول: «لا تقلقي، يمكنك أن تعتبريني مثل ابنته».

ترد السيدة بطريقة جافة: «لو أن للأستاذ ابنة لما سمحت أن يسافر في مثل هذا الظرف الصحي».

تحاول «ميادة» ألا تتجاوز في حق السيدة التي لا تظهر لها محبة وتقول «أنا آسفة لأن الله لم يرزقك بأبناء».

تنفعل السيدة انفعالا أرستقراطيا دون أن يعلو صوتها: «من قال لك

إن الله لم يرزقنا.. قرار عدم الإنجاب كان قرارنا.. كان رغبة الأستاذ وقد وافقته عليها».

تتلعثم «ميادة» ولا تدري ما تقوله ثم تقول: «آسفة لم أكن أعلم».

يتحرك أحد الخدم بالأستاذ إلى سيارته، يساعده السائق في الجلوس في المقعد الخلفي، بينما تنتحي الزوجة بـ «ميادة»، تشعر بحرج في البداية ثم تخرج لها بطاقة المعايدة التي خطها الأستاذ في المستشفى، تناولها لـ «ميادة» وهي تحكي لها قصة البطاقة وتقول: «أود أن أعرف لمَ كتب الأستاذ تلك المعايدة.. إنها مهمتك أن تعرفي ذلك في طريق السفر».

تحمل «ميادة» بطاقة المعايدة وتقلبها، وتنظر إلى العبارة الفرنسية التي كتبها في خلفيتها، وتعلق: «وما المكتوب في تلك البطاقة؟ اعذريني فأنا لا أعرف شيئا عن الفرنسية».

- «مكتوب: في عينيها».
- «أنت تريدين أن تعرفي السبب.. لكن الأبدى أن نعرف لمن كتبها».
- «أظن أنه كتبها لك».

يسود الصمت بينهما.. صمت ثقيل لا يمكن كسره بسهولة، إجابة السيدة لم تكن شافية لدى «ميادة» لكنها لا تقوى على الاستمرار في هذا الحوار، تسحب بطاقة المعايدة وتنصرف.

(١١)

نعيق الغربان في سماء السويس ملفت، لدرجة جعلت وجه «ميادة» معلقا في السماء وهي تسير بجوار الأستاذ، تلمح أسراب الغربان الواقفة على الأسطح، والتي تبني أعشاشها في تلك العمارات الصخرية القديمة، تتعرقل في أحد النتوء الموجودة في الشارع، فينكسر كعب حذائها البني الذي يمتاز بتصميمه المعدني النحاسي، تمسك قدمها ويتوقف الأستاذ بجوارها، لا تدري ما تفعله للحظات، يقول الأستاذ مستغلا لحظات وقوفهما وهو ينظر إلى الكعب النحاسي: «ربما بعد أن ندير ظهورنا يلتقط أحد الغربان الكعب النحاسي ويلقيه في عشه، الغربان تجذبها الأشياء اللامعة، حيث يفتشون أعشاشهم يجدون أحيانا إكسسوارات أو أكياس الشيبسي الفضية»، لا تهتم «ميادة» بما يقول، فمشكلة كعب حذائها الآن تفوق كل مشكلات العالم أهمية، تميل لتلتقط الكعب النحاسي، تسأله: «هل يضايقك أن أسير بجوارك تلك الأمتار هكذا حتى ندخل إلى المركز ثم أجد

حلا لمشكلة الحذاء؟»، يسألها: «أي مركز؟»، تمتعض، وتشير له إلى البناية التي لا يتذكرها، يهز رأسه أن لا مانع، تضطر إلى السير بجوار الأستاذ حتى يصلا إلى المركز الذي يحمل اسمه، تحجل في مشيتها، يلتفت لها الأستاذ ويقول: «يقال إنه حين تم تهجير السوايسة من المدينة، جاءت الغربان إلى هنا وعششت المدينة التي أصبحت أطلالا أثناء العدوان ولما عاد السكان عجزوا عن طرد الغربان، لكن الحقيقة التي يدركها شخص عجوز مثلي أن الغربان كانت موجودة منذ البداية إلا أن السكان لم يلحظوها، وهي لم تشأ أن تستعرض وجودها بوضوح، وعندما وجدت فرصة للظهور على السطح حين هاجر السكان، فعلت ذلك».

تدخل إلى المركز وتفتح له الباب فيستقبلها مدير المركز وأحد الأشخاص الذين يشغلون منصبا ما في المحافظة، يبالغان في الحفاوة به، ويتحركان خلفهما في جولة سريعة، يتطوع مدير المركز بشرح أركان المكان، وقاعات تحفيظ القرآن، ودور المركز في الرعاية الاجتماعية، يبدو على الأستاذ التململ بينما تشعر «ميادة» بالضيق بسبب كعب حذائها، تطلب منها الاستراحة قليلا في أحد المكاتب بسبب مشقة الطريق على الأستاذ، يجلسون في مكتب مدير المركز، تميل على الأستاذ وتنظر في عينيه وتخبره أنها لن تتأخر لتضمن بقاءه هادئا أثناء غيابها، تستأذنهم وتخرج إلى إحدى القاعات الخاصة بالرعاية الصحية في المركز، تجلس على كراسي الانتظار المعدنية، تضع قدما فوق الأخرى، وتخلع حذاءها، تمسك بالكعب النحاسي وتحاول أن تفكر في طريقة لتثبيته، الأمر يحتاج إلى مجهود، تتلفت لتبحث عن مساعدة، فلا تجد، يجذبها منظر بعض العاملين وقد انشغلوا بمنع أحد العجائز الذي يحمل أحد الأطفال معه من الدخول، يصدر الرجل جلبة كبيرة، ويصرخ بأن له حقا في هذا المكان الذي نهبه الأستاذ، يضع أحد العمال يده على فم العجوز، ويدفعه خارج مكان الانتظار الخاص بالقاعة

الطبية، فينصرف الرجل راضخا بعد أن أدرك أن لا طاقة له على النزاع، ترتدي «ميادة» الحذاء وتهرول في حجل خلف الرجل خارج المركز، وتناديه فيلتفت، تسأله عن سبب الجلبة التي يحدثها ولماذا يذم الأستاذ في حديثه، يجيب بهدوء: «لا أريد شيئا من الأستاذ، لكنهم يعتقدون ذلك، كل ما أريده هو اللحاق بالطبيب طبقا لموعدي معه من أجل هذا الطفل، لكن مشكلتي أن موعدي تصادف مع زيارة الأستاذ فمنعوني».

- «ولماذا منعوك؟ هناك العديد من الحالات داخل المركز».

- «خشوا أن أتجاوز في حق الأستاذ إذا ما رأيته».

يجذب الطفل العجوز ويسأله: «هل جدي بالداخل؟»

تسأل «ميادة» بدهشة: «جده!»

يرد الرجل بهدوء: «ليس جده بالمعنى الحرفي، الأستاذ خالي، أي شقيق جدة هذا المفعوص، الله يرحمها.. ماتت وكانت تنتظر حضوره.. لكنه لم يحضر أبدا!».

- «لماذا؟»

- «لأنه لا يحب المكان، لأنه باع كل ما يربطه به، حين عدنا إلى السويس بعد التهجير، زار أمي وطلب منها أن تشتري نصيبه من ورث وأملاك أبيها، ولأنها لم تكن تملك ما يكفي، طلب منها أن يبحثا عن مشترٍ، حينها وجدت أمي نفسها خارج البيت نظير بعض الأموال التي تم صرفها بالطبع، بعدها بسنوات اكتشفنا أنه يمتلك أراضٍ شاسعة من المحافظة، لا نعرف كيف حصل عليها ولم يراع احتياجنا لبيت، خصص منها هذه الأرض كزكاة وتبرع لأهل السويس وفاء منه لهم، هل تعتقدين أن إصراره على هذا المركز من أجل خدمة الفقراء فعلا؟»

- «....»

- «إنه يحاول أن يجمل صورته في البلدة التي شاهدت صعوده، والتي تثرثر عنه.. أراد فقط أن يحول الأنظار عنه إلى تلك المباني الحرسانية».

يشد الطفل الرجل العجوز ويخبره بأنه يريد أن ينام، يستأذن الرجل في الانصراف ويمسك طفله في يده، تتحرك «ميادة» عائدة إلى المركز فيناديها الرجل، ويقول وهو يشير إلى حذائها: «يمكنك حل المشكلة بسهولة بكسر الكعب الآخر».

(١٢)

O bruit doux de la pluie

Par terre et sur les toits!

Pour un coeur qui s'ennuie,

O le chant de la pluie!

تدير «ميادة» أغنية فرلان في طريق العودة إلى القاهرة، تخلق للأستاذ مناخا ليتحدث بطلاقة عما يذكره، يتحدث الرجل عن عصاميته أثناء ترك السويس وعمله في الصحافة، وتدرجه في المناصب، تستغل «ميادة» دفة الحديث وتخرج له قرار تعيينها الموجود في درج مكتبه وتخبره أنها وجدت القرار في درج مكتبه وتذكره بأنه طلب منها قبل رحلة ألمانيا أن يمضيه بمجرد عودته، يمسك القرار ويقرأه، يضعه في ملف مليء بالأوراق بجانبه ويخبر «ميادة» أنه سيفعل ذلك ويعطيها إياه المرة القادمة حين تلتقيه.

تفكر «ميادة» في الضغط عليه لإنهاء الأمر الآن، يقطعها صوت وصول رسالة نصية إلى محمولها، رسالة قصيرة من «عباس مسعود» تحمل عبارة واحدة واضحة: «سأنتظر ردك خلال أسبوع من اليوم حتى نتمكن من العمل»، تعاود قراءة الرسالة بعينيها مرة أخرى، وهي عادة تساعدها على التفكير.

تنظر «ميادة» إلى عيني الأستاذ وتسأله: «هل الأستاذ يفتقد السويس؟»، يسخر منها قائلا: «طريقتك كمن يجري معي حوارا صحفيا، لا أعرف ليس لي بها ما يجعلني أفتقدها»، تتحاشى النظر وتقول: «قابلت اليوم من يدعي أنه أحد أقاربك، وأنك خاله»، يعلق: «Racaille..»، تخبره أنها لا تفهم الفرنسية، فيقول: «في رحلتك.. دائما ما ستجد أعينا حاقدة، إنها إحدى وظائف العين التي لا يستطيع الكثير السيطرة عليها، مبعث الشر الأول، والخطيئة الأولى بين ولدي آدم».

- «لا أفهم أيضا، هل يغير منك أفراد عائلتك نتيجة نجاحك ونبوغك؟»

- «يمكننا القول إنهم لا ينظرون للأمور كما أنظر إليها.. كيف ترين الأمر بما أنك قابلتِ أحد أفراد العائلة؟»

- «لم أر بعد.. لا زلت أنظر إلى بقية أجزاء الصورة».

للمرة الأولى لا تشعر بارتياح لما يقوله الأستاذ، تفكر فيه قليلا، ثم تنظر إلى عينيه كما اعتاد أن يفعل هو فيزداد شعورها بعدم الارتياح، يلحظ الأستاذ تحديقها فيه، فتحاول أن تغير الموضوع، تقول: «بمناسبة الصورة.. هل تسمح لي أن أريك صورة وتخبرني عنها شيئا؟»

- «لا مانع».

تخرج له بطاقة المعايدة، فينظر لها كمن يشاهدها لأول مرة، يقلبها في يده، يكتشف أن الخط خطه، لكنه لا يذكر البطاقة ولا سبب كتابته لتلك الجملة، يسألها عن المكان الذي حصلت منه على تلك البطاقة، فتجيبه أنها كانت في مكتبه بالمؤسسة حتى لا تضطر إلى أن تقص عليه قصة كتابتها في المستشفى.

يدندن الرجل مع أغنية «فرلان»، بينما تعتدل «ميادة» في جلستها، تمسك محمولها، تبحث عن رقم «مالك السيوفي» وترسل له رسالة نصية قصيرة: «أبحث عن رقم تليفون عواد الحسيني.. هلا ساعدتني؟»

(١٣)

عدسات عين السمكة تعطي رؤية مشوهة عن الأجسام والأحجام، الأمر نابع لطبيعة تركيب العدسة وبعدها البؤري وعلاقة الضوء المنعكس عن الأجسام خلال تلك العدسات، لكنها تستطيع أن تعطي صورة مقربة جدا، لذلك تستخدم عدسات عين السمكة في صنع «العين السحرية» التي توضع داخل أبواب المنازل، الأمر الذي يتيح للناظر من خلالها تكوين صورة كلية لمن يقف خارج الباب وعما يحمله في يده حتى وإن كانت النسب والأبعاد مشوهة، ينظر «الحسيني» من خلال تلك العين السحرية فيجد «ميادة» تقف خارج الباب، يتحرك بهدوء وروية عائدا إلى مقعده دون أن يستجيب أو يصدر صوتا بوجوده، تلحظ «ميادة» الإظلام المفاجئ للعين السحرية الناتج عن حجب أحد الأشخاص للضوء خلفه وهو ما يعني أن هناك من نظر خلال العين السحرية ثم تحرك، تطرق الباب مرة أخرى وهي تصيح بصوت مرتفع: «سيادة الوزير أنا أعرف أنك بالداخل.. وأنك

شاهدتني من خلال العين السحرية.. أرجوك افتح لي لمدة دقيقة فقط».

لحظات من الانتظار قبل أن ينفتح الباب مواربا، يقف خلفه «الحسيني» مرتديا روبا صوفيا أخضر اللون واضعا النظارة الشمسية على عينيه وهو يتلفت، تطمأنه «ميادة»: «لا تقلق لم أحضر مصورين معي»، يخلع النظارة في هدوء وهو يتأكد مما تقول، ويرد: «لكنني لا أقابل صحفيين»، تطمأنه «ميادة» مرة أخرى: «هذه ليست مقابلة صحفية».

يتندر مما يقول وهو يشير إلى سور فيلته: «إن لم تكن لأهداف صحفية.. فكيف تفسرين اجتيازك لسور الفيلا؟»

تنظر إلى السور الذي اجتازته قبل لحظات بصعوبة بالغة، تقول «قلت إنها ليست مقابلة صحفية، لكن الأمر لا يمنع أن أستغل مهاراتي الصحفية في الوصول إليك.. فأنا في البدء صحفية تحقيقات».

- «لقد رأيتك عند صلاح».
- «ولهذا جئت».
- «لماذا؟»
- «حتى أسألك عن سبب زيارتك له».

(١٤)

في أثناء تحضير «الحسيني» للشاي، ابتسمت «ميادة» وتمنت أن يراها «مالك» الآن، حين طلبت منه رقم «الحسيني» أرسله إليها مذيلا المعلومة بعبارة «لا يرد على الهاتف.. كان غيرك أشطر»، هنا حادثته «ميادة» وطلبت عنوانه، حينها استفزه إصرارها وقال ساخرا: «هل عدت صحفية تحقيقات؟»، لم تتجاوب مع دعابته واستمرت في طلب العنوان، أعطاه لها وأخبرها أن عددا من الصحفيين حاولوا الوصول له لكنه يرفض رفضا قاطعا، حاول أن يفهم منها سبب احتياجها لمقابلة الرجل لكنها رفضت أن تخبره.

يضع الحسيني كوب الشاي أمامها ويقول: «بعد سنوات طويلة حين تصلين إلى مثل سني، ستقابلين في حياتك شخوصا كثرا، ستحبين من تحبين وستصدمين في آخرين، ستحتاجين فقط أن تقابلي البعض، لتنظري في أعينهم، للعتاب نظرة، وللحنين نظرة، وللشماتة نظرة، كلها لن يفهمها

إلا الموجهة له تلك النظرة.. كل ما كنت أريده من صلاح هو أن أنظر في عينيه».

- «أي نظرة كنت تريد أن توصلها له.. نظرة من تعرض للظلم؟»
- «لن أزايد وأخبرك بأنني مظلوم، بالعكس سأفاجئك، لقد كنت فاسدا، لم يكتب صلاح كلمة خاطئة عني، وقد أخذت عقابي وكفرت عنه وتعلمت منه، وفرضت على نفسي عزلتي الإجبارية».
- «إذن هي نظرة عتاب.. لأن صلاح كان صديقك كما أعرف في وقت من الأوقات؟»
- «نظرة العتاب تكون بين الأصدقاء فقط».
- «هل تسقط عنه صداقتك لأنه غلّب دوره كصحفي على تلك الصداقة؟»

يضحك «الحسيني» حتى يبح صوته، ويقول: «معك كامل الحق، صلاح يجيد اختيار التوقيت الذي يتخلى عن دوره كصديق، صديق اختار أن يبيعك بعدما اكتفى من النفع منك، كنت فاسدا بالفعل، وقد قاسمني الأستاذ الكثير مما كسبته، وخطط لبعض ما فعلته، لكنه فعل أكثر ما يجيده بعد ذلك..»

يصمت قليلا ثم يردف: «عرف متى يشتري نفسه على حساب الآخرين».

يسود الصمت لثوانٍ ويكمل «الحسيني»: «أتدرين أكثر ما يضايقني.. أنني ذهبت إلى عنده كي أنظر في عينيه فقط لكنه لم يتذكرني، لم يعطني الفرصة حتى أوصل له ما أريده، ضيّع علي آخر مواجهة كنت أرجوها لسنوات، بعد أن كان يتهرب منها وقت قوته وعنفوانه كصحفي».

تنهض «ميادة» وهي تقول: «لأنك ارتديت نظارتك الشمسية».

- «نعم!!»

- «لم يتعرف عليك لأنك ارتديت نظارتك الشمسية لتختفي عن أعين الآخرين، لو أنك خلعت نظارتك لثوانٍ ونظرت إلى عينيه لشاهد الأستاذ كل ما فعله كشريط سينمائي، ولأخذت منه كل ما كنت تريده».

تحمل «ميادة» حقيبتها وتتجه خارجا، تشكره على الشاي وتقول: «في المرة القادمة.. اخلع نظارتك الشمسية».

(١٥)

الأجواء مشحونة في منزل الأستاذ لسبب لا تعرفه ميادة، تستشعر ذلك في حركة الجميع منذ أن دلفت إليه، تطلب من أحد الخدم كوبا من الماء، قبل أن تخبرها الزوجة أن الأستاذ ينتظرها، تدخل إليه المكتب فتجده واقفا على السلم الخشبي الصغير للمكتبة يبحث في أحد الكتب بينما بعض الأوراق مبعثرة على الطاولة الجانبية بينها قرار تعيينها موقعا بخطه، تبتسم، أخيرا نالت ضالتها، تلقي السلام فلا يجيب الأستاذ، اعتادت منه على مثل تلك الأفعال، يقول: «النهايات دائما ما تكون صعبة.. فرلان مات فقيرا معدما مدمنا يقتات من الشوارع رغم أنه كان الأعظم».

يهبط درجات السلم بعد أن وضع الكتاب في موقعه، يسألها عن أحوالها فتخبره بأنها في أحسن حال وأنها تعتقد أنه أيضا في أحسن حال فهي لم تره منذ فترة طويلة في تلك الحالة، يقول: «إنه اليوم الأول لي الذي أطلب

منهم أن يخبروني بموعد وصولك.. حين أخبروا الطبيب بأنني فعلت ذلك اندهش».

- «يبدو أنك تذكرت شيئا تود أن تخبرني به كعادتك..»

- «هل أخبرتك من قبل كيف تم تعييني في تلك المؤسسة؟»

- «لا، لكنني حين قرأت على الإنترنت عرفت أنك تقدمت إلى مكتب الأستاذ عادل الخولي رحمه الله، وطرقت مكتبه، وحين قابلك سألك أين ترى نفسك في المستقبل أو ما هو طموحك، فأخبرته بجرأة أنك تتمنى أن ترى نفسك في مكتبه، فأعجب بردك وقام بضمك إلى المحررين ثم تم تعيينك».

يضحك الرجل ويقول: «التاريخ يكتبه المنتصرون.. ولو كان رحمه الله على قيد الحياة لسمعتِ مئات القصص منه».

- «دائما ما يتحدث الناس عنك بقصص كثيرة مغايرة.. وأنت لا تشغل بالا لذلك».

- «وبم يتحدث الناس عني في المؤسسة حاليا؟»

- «بمثل ما كانوا يفعلون دائما.. الأستاذ لا ينسى ويعلم كل صغيرة وكبيرة في المؤسسة، لذلك يمكنك أن تخبرني أنت بها لا أعرفه».

- «اتفقت مع عباس مسعود على العمل في مكتبه دون أن تخبريني..»

ترتبك وتقول: «لم أتفق لكن..»

يعلو صوت الأستاذ فتدخل زوجته لتشاهد ما يحدث: «تتفاوضين على اتفاق.. لا يهم النتيجة واحدة.. ستذهبين من أجل الحصول على التعيين».

تكمل وكأنها لم تسمعه: «لم أتفق.. الموضوع أن..»

- «أنت اخترت الوقت المناسب لتتخلي عني.. لتبيعي تلك السنوات، وتشتري آخرين».

- «أنا لم أبعك، ثم إنني لا أشتري آخرين، في كل اختياراتي أشتري نفسي.. ثم إنني أخبرتك أنني لم أتفق لكن..»

- «ستتفقين لأنني دائما ما أعرف اختياراتك..»

تحاول أن تنطق فيمنعها قائلا: «أنت تجيدين ذلك.. إنه كامن في أعماقك.. منذ تركت الصحيفة للعمل في مكتبي.. لكنني لم أفكر للحظة أن الدور قد يأتي علي أنا الآخر».

تشير له لتوقفه حتى تشرح الأمر فيكمل: «ستختارين ذلك.. لأسباب كثيرة.. أو لسبب وحيد متعلق بشخصيتك..»

هنا تصرخ «ميادة» قائلة: «لأنك كنت ستختارها لو كنت مكاني..»

يصمت الرجل فتكمل في هدوء: «لأنني ابنتك.. ولأنك ترى في نفس الطريق دائما.. إن كنت تعلمت مني أشتري نفسي.. فلك الحق أن تفخر بأنك علمتني إياه».

تتحرك خارجة بسرعة وهي تدمع قليلا، تتبعها السيدة إلى الخارج، وتحاول أن توقفها، حين تنجح في ذلك، تتنفس «ميادة» ثم تقول للسيدة: «أنت تعلمين كل ذلك عنه، تعلمين كل ما فعله أو اختاره طوال الخمسين عاما الماضية، أو ما أجبرك أو أقنعك بفعله، تماما مثل قضية عدم الإنجاب، طوال سنوات يقنعني بأنك لا تنجبين بيننا الموضوع كان قراره كما كان دائما، تعلمين ذلك وربما لا تحبينه أو لم توافقي عليه، يظهر عليك بعد كل السنوات رغم أرستقراطيتك الشديدة، الازدراء والكراهية وربما تأنيب ضميره، يظهر ذلك في عينيك اللتين يجيد قراءتها، لذلك لا تدعينه ينظر

إليهما كما كانا، لم تخلعي عدساتك، ربما حتى لا يتذكر الأستاذ في مرضه ما فعله سابقا فيموت من الحسرة.. ولذلك تبعدين عنه الجميع.. حتى يرحل في هدوء.. أوتعلمين.. لم تكن بطاقة المعايدة لي أبدا.. لسبب بسيط أنني لا أفهم الفرنسية إطلاقا.. والأستاذ لا ينسى.. إنه يرى في عيني انعكاسه بينما يرى في عينيك كل ماضيه.. أتعرفين ماذا يقصد بتلك الجملة؟»

تقول السيدة بهدوء: «Ne pas regarder dans les yeux»

تعلق «ميادة» قبل أن تنصرف: «لا تنظر في عينيها.. الموضوع لا يحتاج لفهم الفرنسية.. كانت البطاقة من نفسه وإلى نفسه.. فهو لا يخاطب أحدا آخر».

(١٦)

حين اختفت «ميادة» فجأة ودون سابق إنذار، كادت السيدة أن تجن لأن «الأستاذ» قد سبقها وجن بالفعل، توقفت الفتاة عن زياراته اليومية، وتوقف محمولها عن الاستجابة، دائما ما يبين أن الهاتف مغلق، ثم توقفت الحياة في فيلا «الأستاذ»، عاد الرجل إلى عصبيته المقيتة، ثم بدأ في النسيان تدريجيا، ورغم أن غياب الفتاة لم يتجاوز أسبوعين إلا أنهما كانا كفيلين بأن يتوقف الأستاذ عن النظر إلى شاشة الأخبار لمتابعة ما يحدث، أو قراءة أشعار «بول فرلان» ، إذ باتت ذاكرته ـ بغياب التدريب اليومي ـ صورة هائمة مموهة خرجت كذلك لأن عامل المطبعة لم يجتهد في وضع أفلام الطباعة فوق بعضها بدقة.

حاولت السيدة السؤال عن الصحفية في المؤسسة، تعتقد أن الفتاة حسمت أمرها كما أخبرتها مسبقا بالعمل داخل قطاع آخر، يخبرها العاملون أنها مختفية من الفترة ذاتها التي شهدت اشتباكات بالقرب من مقر المؤسسة

بين الأمن وبعض المتظاهرين، وأن زملاءها لا يعلمون عنها شيئا، وهو ما زاد جنونها وقلقها، تفكر بأن تستعين بأحد الإعلاميين الأصدقاء في إحدى الفضائيات ليثير قصتها وتتراجع إذ ربما يكون سبب غيابها تافها، أو أمرا عائليا عارضا، وهو ذات السبب الذي جعلها لا تلجأ إلى أحد أقاربها في وزارة الداخلية.

ابتعد الأستاذ عن القراءة بالتدريج، خاصم «فرلان» وأصدقاءه، يجلس بالساعات ينظر إلى السراب الخريفي المرسوم على شباك مكتبه وقت الغروب، يرد الشاي بجواره كما يرد الجو تدريجيا بفعل تغيير الفصول، تدير الزوجة أغنية قصيدة فرلان مغناة في مشغل الأسطوانات.

Il pleure sans raison

Dans ce coeur qui s'écoeure.

Quoi ! nulle trahison

Ce deuil est sans raison.

لا تحرك الأغنية مشاعر الأستاذ ولا يلتفت لها من الأساس، حتى إدراكه بها أصبح معدوما، لتغدو مجرد خلفية موسيقية حزينة تلائم ذلك الشتاء الذي ضرب المكان والرجل معا.

(١٧)

«جدع يا باشا.. جاءت في عينه».

بعد أسبوعين من العلاج استطاعت «ميادة» أن ترى المقطع المصور الشهير بعين واحدة، تتحسس عصبة العين اليمنى التي وضعها لها الأطباء، وتشعر بغرابة، تتذكر ما قرأته أو شاهدته بشكل عابر في قناة «ناشونال جيوجرافيك» أن الأبعاد تختلف حين تغمض إحدى عينيك، ولا تتذكر السبب لأنها لم تهتم يوما بالأمور العلمية، تحاول أن تختبر الأمر وهي تضغط جرس الفيلا الدائري الصغير مثلما يفعل تماما الصياد وهو يضبط بعينه قاعدة النيشان.

ينفتح الباب فتراها السيدة، تجري تجاهها، تمسكها من يدها، لا تحتاج إلى أن تسألها عن سبب غيابها، فعصابة العين تشرح وتوضح، والسيدة ماتزال تقرأ الصحف، ربما لا تتعاطف مع من تظاهر، لكنها تتعاطف مع الفتاة، تتحاشى أن تسألها إن كانت إصابتها بسبب مهني نتيجة لتغطيتها

تلك الاشتباكات أم لكونها التحمت بالجموع ضد رجال الشرطة، لا تريد أن تكون انطباعا إضافيا عنها يجعلها تنفر منها نتيجة اختلافها مع أيدولوجياتها. تصمت «ميادة» أمام تجاهلها فهي أيضا لا تريد التحدث عن الأمر، تذيب عبارات ترحيبها وحفاوتها جليد القصة المسكوت عنها.

يكفيها ما شعرت به حين وجدت «مالك» وزوجته في غرفتها بالمستشفى يحاولان الاطمئنان عليها، كانا أول ما وقعت عينها الوحيدة عليه حين أبصرت، يسألها «مالك»: «لماذا؟»، تبتسم وتقول «ألم تمل هذا السؤال يا مالك؟ أنت تعرف الإجابة بنفسك، لأنني صحفية تحقيقات، والعمل الميداني هو ما أنا عليه».

- «حين أخبروني أنك قدمت طلبا بنقلك إلى أحد أقسام التحقيقات لم أصدق».

لكنهم صدقوا ووافقوا، وحين خرجت من المؤسسة قاصدة بيت الأستاذ حتى تخبره وجدت الاشتباكات قد بدأت، ووجدت أن دورها قد بدأ أيضا، تتردد في البداية، زيها لا يليق بمثل تلك التغطيات الميدانية، تنظر إلى حذائها ذي الكعب، قبل أن تقرر أن تخلعه وتركض حافية إلى داخل الاشتباكات، لتفيق على وجه «مالك» وزوجته يحملان ورودا لها.

تتبع «ميادة» الزوجة إلى مكانها الصحيح داخل مكتب الأستاذ، تخبر السيدة الأستاذ بقدوم ابنته فلا يلتفت الأخير ولا يحرك ساكنا، تتحرك «ميادة» إلى المكتبة، تلمح الأوراق على الطاولة الجانبية وبينها ورقة التعيين بإمضائه، تبتسم وتخرج كتاب «فرلان»، وتقترب من الرجل لتجثو على ركبتها وتعطيه للأستاذ، الذي ينظر في عينها الوحيدة طويلا، قبل أن يتناول الديوان، ويضعه جواره وينظر في اتجاه الشباك مرة أخرى دون أن ينطق بكلمة، تناديه «ميادة» فينظر لها، تدقق في عينيه ويدقق في عينها، يمد

يده ليتحسس العصابة، ويبدو عليه أنه لا يعرفها، تخرج له بطاقة المعايدة وتناولها إياه، يقلبها في يده ويقرأ دون أن تظهر عليه معرفة مسبقة بالأمر ولا يبدو عليه الاهتمام، ينظر إلى الفضاء الممتد من نافذته.

الفهرس

- فوتوكوبي ٧
- رعشة السيد «بلي» ٦٥
- على الجانب الآخر من الهاتف ٩٥
- ماريا هلفر ستراشي ١٢١
- بشكل اعتيادي ١٤٩
- العين السحرية ١٦٥

POSTKARTE

يتناول بطاقة المعايدة، ويشير بيده طالبا قلم، حينها تقدمت السيدة الارستقراطية لتناوله قلما فخما نقش عليه اسم "صلاح عزام"، تأمل الاسم المكتوب بحروف لاتينية متشابكة، وخمّن أنه يحمل الاسم نفسه، ارتعشت يده قليلا فضبط نفسه وتحكم في أعصابه وكتب عليها "Dans ses yeux"

للنشر والتوزيع